أجاثا كريستي

رحلة الأخطار

دار النجمة للنشر والتوزيع

رحلة الأخطار

بسم الله الرحمن الرحيم

أجاثا كريستي

رحلة الأخطار

دار النجمة للنشر والتوزيع

جميع حقوق هذه الطبعة محفوظة للناشر:
دار النجمة للنشر والتوزيع

يُمنَع تصوير أو إعادة إنتاج هذا الكتاب
ورقياً أو إلكترونياً إلا بإذن خطي مسبَق من الناشر

للاستفسار والطلبات التجارية
AgathaBooks@sardira.com

الفصل الأول

لقد ألحّ عليّ الكثيرون بأن أكتب هذه القصّة فلم أرَ مناصاً من الاستجابة إلى هذا الإلحاح، ولكنني لا أكتمك أيها القارئ أن بعض هذه الوقائع قد نسيتُها، فكان لا بدّ أن أستعين بمذكّرات السير أوستاس بيدلر لأنقل عنها ما أسدّ به هذه الثغرات.

كان أبي الأستاذ بيدنغفيلد من أكبر العلماء في إنكلترا في علم الإنسان البدائي وكانت مؤلّفاته مراجع في علم النفس، ولكنه مات فقيراً لأن كتبه لم تكن تلقى لها سوقاً إلا عند العلماء دون الجماهير، فكان ما يُطبع منها عدد محدود يدرّ عليه دخلاً قليلاً. ولما مات أبي اضطررتُ إلى أن أهجر القرية التي نشأتُ فيها وأن أستقرّ في لندن سعياً وراء عمل أرتزق منه. وذات يوم من أيام شهر كانون الثاني (يناير)، الثامن منه، كنت راجعة من لقاءٍ فاشل مع سيّدة زعمت في إعلانها أنها في حاجة إلى سكرتيرة، فلما تكلّمنا في الأمر أدركتُ أنها تريد شغّالة لا سكرتيرة.

وقد اتجهتُ إلى المحطّة فهبطت الدرَج المؤدّي إلى نفق القطار الكهربائي وأخذت أتمشى على الرصيف أترقّب قدوم قطاري حتى بلغت نهاية النفق، وكان المكان خالياً ليس فيه أحد من الركّاب سوى رجل واحد كان واقفاً على الرصيف ينتظر

قدوم القطار. وقد مررت بالرجل وتجاوزته، وعندئذ نفثت من صدري عطسة شديدة؛ فقد كان معطف الرجل يفوح بالنفتالين الذي يزكم الأنوف، وقد كانت رائحة النفتالين النفّاذة أشدّ مما أحتمل. وكان الرجل ضئيل الجسم نحيف البنية تشوب وجهه سمرة واضحة وله عينان زرقاوان ولحية صغيرة سوداء.

وفي تلك اللحظة استدار الرجل كأنما يتابع المشي على رصيف القطار، ثم نظر إليّ برهة ثم تجاوزت عيناه كتفي إلى شيء ورائي، فانقلبت سحنته وظهرت على وجهه أمارات الخوف والهلع، ثم ارتدّ الرجل خطوة إلى الوراء كأنه يتّقي خطراً داهماً مفاجئاً، ونسي وهو في غمرة ذعره أنه كان واقفاً على حافّة الرصيف فسقط فوق القضبان والأسلاك المكهربة فانبعث منها وميض صاعق وقرقعة شيء يحترق، فأطلقتُ صرخة مدوّية فهرع الناس راكضين على صرختي. لقد صعق التيار الكهربائي الرجل المسكين! ونقل رجال المحطة الجثة إلى الرصيف، ثم برز من الجمع رجل طويل القامة عريض المنكبين ذو رأس منبعج وهو يقول: اسمحوا لي أن أمرّ؛ فأنا طبيب.

وانحنى فوق الرجل المدَّد فوق الرصيف ومضى يفحصه، ثم ما لبث أن انتصب قائماً وهو يقول: لا أمل يُرجى؛ فهو ميّت دون شكّ.

وقد داخلني شعور بالغثيان فهرولتُ إلى المصعد، وكان الطبيب الذي فحص الجثة يتّقدمني بخطوة أو خطوتين، ورأيت المصعد يهبط ويخرج منه مستقلّوه، فأسرع الطبيب ليلحق به قبل أن يعاود الصعود، وبينما هو يفعل ذلك سقطت منه ورقة على

الأرض، وانحنيتُ فالتقطت الورقة وجريت في أعقابه لأعيدها إليه ولكن أبواب المصعد أُغلقت وأخذ في الصعود، ولم يكن مدوّناً على الرقعة إلاّ بضعة أرقام وكلمتان، وكان هذا نصّها: «١٧-٢٢-١ قصر كيلموردن».

وهممت أن أقذف بالورقة إلى قارعة الشارع وأمضي في طريقي، ولكن في تلك اللحظة زكمت أنفي رائحة النفتالين النفّاذة، وكانت تلك الرائحة منبعثة من الورقة التي بين يديّ، فعقدت ما بين حاجبيّ مفكّرة وقلت لنفسي: هذه الورقة لها رائحة النفتالين، ومعطف الرجل الذي وقع فوق القضبان له نفس الرائحة، فما معنى هذا؟

ولكنني طويتُ الورقة ووضعتها في حقيبتي، ثم عُدت إلى بيت السيد فليمنغ المحامي الذي كان يتولى شؤون أبي، والذي تَفضّل واستضافني في بيته بلندن بعد أن أخبرني بالحقيقة المؤلمة، وهي أن أبي لم يترك لي سوى ثمانين جنيهاً هي كل ثروته. وقد رويتُ للسيدة فليمنغ ما كان من أمر المأساة التي شهدتُها، ثم لُذت بغرفتي وأسلمت نفسي إلى التفكير، فأخذت أتمثّل ما حدث على رصيف المحطة، الجثة المسجاة على الأرض، الطبيب المجهول يبرز من بين الصفوف، الطبيب يفحص الجثة، الطبيب...! وهنا فطنتُ إلى شيء لم أتنبّه إليه حينئذ، شيء عجيب لا يمكن أن يصدر من طبيب.

وكان العشاء قد أُعدّ فنزلت إلى قاعة المائدة لأتناول العشاء، وقالت السيدة فليمنغ: لا شكّ أنهم سوف يطلبونكِ لحضور جلسة التحقيق.

وبالفعل عُقدت جلسة التحقيق وصحبني السيد فليمنغ إلى المحكمة وتبيّن من التحقيق أن الرجل الذي صعقه التيار الكهربائي يُدعى ل. ب. كارتون، ولم يجد رجال الشرطة في جيوبه إلاّ تصريحاً من أحد سماسرة العقارات يخوّله الحقّ في مشاهدة بيت معروض للإيجار على ضفّة النهر بالقرب من مارلو معروف باسم فيلاّ الطاحونة، ومن هذا التصريح استطاعت الشرطة أن تستدلّ على اسمه المدوّن به، وهو ل. ب. كارتون المقيم في فندق راسل. كما تعرّف كاتب استعلامات الفندق على الجثة وأكّد أن الرجل نزل بفندقه في اليوم السابق ودوّن اسمه في السجلّ على أنه قادم من كمبرلي بجنوب إفريقيا، وخُيّل إليه أنه قادم مباشرة من الباخرة.

وقد كنتُ بين الشهود الوحيدة التي تعرف شيئاً عن الحادث، فسألني قاضي التحقيق: أتعتقدين أن الحادث كان قضاء وقدراً؟

- أنا على يقين من هذا؛ فقد أفزعه شيء ما فارتدّ خطوة إلى الوراء دون أن يفطن إلى أنه واقف على حافّة الرصيف فسقط على القضبان.

- ولكن ما الذي أفزعه؟

- هذا ما لا علم لي به.

فعقّب القاضي على شهادتي بأن أصدر قراره بأن الحادث إمّا أن يكون قد وقع قضاء وقدراً أو أن الرجل تعمّد أن يلقي بنفسه على القضبان المكهربة بُغية الانتحار. ثم استطرد القاضي

يقول: ولكن العجيب أن الطبيب الذي قام بفحص الجثة لم يتقدّم للإدلاء بأقواله، ومما يؤسف له أن أحداً من رجال الشرطة لم يفكّر في أن يسأله عن اسمه وعنوانه.

فارتسمت على شفتَي ابتسامة خفيفة وأنا أستمع إلى كلمات القاضي؛ فقد كنت الوحيدة التي أعتقد أن هذا الحادث لم يكن قضاء وقدراً وأن له جوانبه الخفية، ولذلك استقرّ عزمي منذ تلك اللحظة على أن أقوم لحسابي الخاصّ بمهمة الشرطي السرّي.

* * *

حملت إليّ صحف الصباح التالي مفاجأة مذهلة لم أكن أتوقّعها، فقد صدرت صحيفة الديلي بادجيت وفي صدرها النبأ التالي بالخطّ العريض: «العثور على امرأة مخنوقة»، وكان هذا نصّ ما نشرته الصحيفة:

> اكتُشفت أمس مأساة رهيبة في فيلاّ الطاحونة في مارلو، والتي يملكها السير أوستاس بيدلر عضو البرلمان، وهو نفس البيت الذي عثرت الشرطة على تصريح بزيارته في جيب ذلك الرجل المدعو كارتون الذي صعقته القضبان المكهربة، وذلك أن الحارسة عثرت على جثة امرأة حسناء في إحدى غرف الطابق العلوي وقد قُتلت خنقاً. ويقال إن القتيلة امرأة أجنبية الجنسية، وما زال التحقيق جارياً. أمّا السير أوستاس بيدلر فمتغيّب الآن عن إنكلترا حيث يقضي فصل الصيف في الريفييرا.

* * *

الفصل الثاني

أسفر التحقيق في الحادث الجديد عن الحقائق التالية: بعد الساعة الواحدة من ظهر اليوم الثامن من شهر كانون الثاني (يناير) دخلت امرأة أنيقة تتحدّث بلكنة أجنبية إلى مكاتب السيد بتلر وبارك وشركائهم سماسرة العقارات في نايتس بردج، وأبدت رغبتها في استئجار أو شراء بيت على ضفاف نهر التايمز على أن يكون قريباً من لندن، فعرض عليها السماسرة قائمة بما لديهم من بيوت وكان من بينها فيلاّ الطاحونة. وذكرت المرأة أنها تُدعى السيدة دي كاستينا وأنها مقيمة في فندق ريتز، ولكن تبيّن بعد مصرعها أنها ليست نزيلة في هذا الفندق.

واستُدعيت للشهادة السيدة جيمس زوجة بستاني السير أوستاس بيدلر، وهي الحارسة التي تشرف على الفيلاّ، فقرّرت في أقوالها أنه في الساعة الثالثة من نفس اليوم حضرت السيدة لمشاهدة المنزل وأبرزت تصريحاً من السماسرة يخوّلها الحقّ في زيارته، فأعطتها السيدة جيمس المفاتيح فمضت إليه وحدها دون أن تصحبها المشرفة، وبعد بضع دقائق حضر شابّ وصفته السيدة جيمس بأنه عريض المنكبين حليق اللحية يرتدي بدلة بنية فذكر للمشرفة أنه صديق للسيدة التي سبقته، وبعد خمس دقائق

ظهر الشابّ مرة أخرى وأعاد إليها المفاتيح وذكر لها أن البيت لم يناسبهما. ولم تكن السيدة الأجنبية في صحبة الشابّ، فخطر للسيدة جيمس أنها لا بدّ أن تكون قد سبقته إلى الطريق، ولكن الذي لم تفطن إليه حينئذ أن الشابّ كان يبدو منزعجاً قلقاً، بل قالت على حدّ تعبيرها: كان يبدو وكأنه رأى شبحاً.

وفي اليوم التالي جاء رجل بصحبته سيّدة لمشاهدة المنزل فاكتشفا الجثة ممدّدة على الأرض في إحدى غرف الطابق الأعلى، وقد تعرّفت السيدة جيمس على الجثة وقالت إنها تلك المرأة الأجنبية التي جاءت في اليوم السابق، كما تعرّف عليها السماسرة بأنها تلك التي قدّمت نفسها إليهم باسم السيدة كاستينا. وقد قرّر الطبيب الشرعي أن الوفاة حدثت منذ أربعٍ وعشرين ساعة.

وذهبت صحيفة الديلي بادجيت إلى أنه من المحتمل أن يتبادر إلى الذهن أن رجل النفق الذي صعقه التيار الكهربائي هو الذي قتل المرأة ثم انتحر بعد ذلك، ولكن لمّا كان الرجل قد مات في الساعة الثانية في حين كانت المرأة لا تزال على قيد الحياة في الساعة الثالثة فممّا لا شكّ فيه منطقيّاً أنه لا شأن لأيّ من الحادثتين بالأخرى، أمّا التصريح بزيارة فيلاّ الطاحونة الذي وُجد في جيب قتيل النفق والتصريح الآخر الذي جاءت به قتيلة الفيلاّ فلم يكن أمرهما إلا مجرّد مصادفة بحتة. وكان قرار قاضي التحقيق هو توجيه تهمة القتل العمد ضدّ شخص أو أشخاص مجهولين.

وهكذا انطلق رجال الشرطة ومخبرو صحيفة الديلي

بادجيت يبحثون عن الشابّ ذي البدلة البنيّة الذي جاء في أعقاب القتيلة عند ذهابها لمشاهدة فيلاّ الطاحونة. وكانت الشرطة قد عثرت في حقيبتها السوداء الحريرية على كيس مليء بأوراق النقد وحفنة من النقد الفضيّ ومنديل حريريّ وتذكرة الإياب إلى لندن، ولكن لا شيء آخر يمكن أن يكشف عن شخصيتها.

كانت هذه هي التفصيلات التي نشرتها الديلي بادجيت عن هذه الأحداث، وقد عقّبت عليها بقولها: «ابحثوا عن الشاب ذي البدلة البنية»، وكانت في كل يوم تكرّر هذا النداء ولا تزال تردّده. وهكذا استقرّ في أذهان الناس أن حادث فيلاّ الطاحونة كان جريمة قتل متعمّدة، أمّا حادث النفق فكان مجرّد قضاء وقدر.

وبعد ذلك ذهبت إلى اسكتلنديارد فقابلت المفتش ميدوز وتبادلنا التحية في بساطة، ثم دعاني إلى الجلوس وسألني أن أدلي إليه بما لديّ من معلومات فقلت له: لقد سمعتَ بحادث قتيل النفق طبعاً، أليس كذلك؟ الرجل الذي عثروا في جيبه على تصريح بزيارة فيلاّ الطاحونة.

فقال المفتش ميدوز بسآمة واستخفاف: آه، أنت إذن الآنسة بيدنغفيلد التي أدلت بشهادتها في المحكمة؟ أجل، كان في جيب الرجل تصريح بمشاهدة على الفيلاّ، وهذا التصريح موجود لدى كثيرين غيره، ولكن ليس معنى ذلك أنهم لا بدّ أن يُقتلوا.

وساءني استخفافه فقلت له: ولكن ألا ترى أن من الغريب أنه لم يكن في جيب الرجل تذكرة الإياب؟

- ولماذا يبدو الأمر غريباً والكثيرون يفقدون تذاكرهم بسهولة؟ أنا نفسي سبق أن فقدتُ تذكرتي أكثر من مرّة.

- ألم تلاحظ أنه لم يكن معه شيء من النقود؟

- لقد كانت معه بعض قطع من النقود المعدنية.

- ولكنكم لم تعثروا على محفظته.

- كثير من الناس لا يحملون محافظ على الإطلاق.

ورأيت أن أحرجه من ناحية أخرى فقلت: أليس غريباً أن الطبيب الذي فحص جثة قتيل النفق لم يتقدّم إلى قاضي التحقيق للإدلاء بشهادته؟

- وما وجه الغرابة في ذلك؟ الأطبّاء قوم مشغولون لا يجدون لحظة فراغ للتوجّه إلى المحاكم.

فقلت بغيظ وحنق: أنت مُصرّ يا سيدي المفتش على أن لا تجد وجهاً للغرابة في أيّ شيء أشير إليه!

فقال المفتش وعلى شفتيه ابتسامة استخفاف: أنا أرى يا آنسة بيدنغفيلد أنكِ فتاة واسعة الخيال تتخيّلين أشياء لا وجود لها، وأنا كما ترَين رجل مشغول.

فأدركتُ أنه يوحي إليّ بالانصراف. وكان في الغرفة ضابط آخر رأى أن يتدخّل في الحديث قائلاً: أرى أنه يحسُن بالآنسة بيدنغفيلد أن تُدلي إلينا بما لديها من معلومات.

فقال المفتش ميدوز متهكّماً: هيا حدّثيني بما تريدين.

ولذت بالصمت؛ فقد شعرت أن كرامتي قد أُهينت، فقال المفتش: لقد قلت في التحقيق إن الحادث لا يمكن أن يكون انتحاراً، فما الذي دفعك إلى هذا الاعتقاد؟

- لأنني رأيتُ على وجه الرجل قبل أن يقع فوق الأسلاك المكهربة دلائل الخوف والفزع، فما الذي أخافه؟ لست أنا بالطبع، ولكن ربما كان هناك رجل يتمشّى على الرصيف فأثار رعبه.

- ولكنكِ لم ترَي ذلك الرجل.

- أجل؛ فأنا لم أُدِر رأسي، ولكن بمجرّد أن رُفعت الجثة من فوق القضبان تقدّم رجل من بين صفوف الجماهير ومضى يفحص الجثة.

فعقّب المفتش بجفاء: هذا أمر طبيعي.

- ولكن هذا الرجل لم يكن طبيعيّاً.

فبدت الدهشة في وجهه وتساءل: وكيف عرفتِ هذا يا آنسة بيدنغفيلد؟!

- في أثناء الحرب كنت أعمل ممرّضة في المستشفيات العسكرية فرأيتُ الأطبّاء وهم يفحصون الجثث، ولهم في ذلك طريقة واحدة لا تكاد تختلف، كما أن الطبيب يعرف بداهة أن القلب في الجهة اليسرى من الصدر، أمّا هذا الطبيب المزعوم فكان يتحسّس النبض في الجهة اليمنى!

- هل فعل ذلك حقاً؟

- طبعاً، وإن كنتُ لم أفطن إلى ذلك إلا فيما بعد عندما تخيّلت وضع الجثة وموقف الطبيب.

- لعلك واهمة أو مخطئة.

- الذي أريد أن أقوله هو أن ذلك الرجل طبيب كاذب مُدّع، ولا شكّ أن غرضه من فحص الجثة هو الاستيلاء على محفَظة القتيل، ولذلك لم تعثر الشرطة على محفظة في جيبه.

- هل لكِ أن تصفي الرجل؟

- إنه رجل طويل القامة عريض المنكبين وله لحية صغيرة سوداء مدبّبة وفوق عينيه نظّارة سميكة ورأسه منبعج يرتدي معطفاً أسود.

فقال المفتش مزمجراً: هذه أوصاف لا تؤدّي إلى شيء؛ فمن السهل اتخاذ اللحية والنظّارة وسيلة للتنكّر.

وعقاباً له على تشكّكه واستهانته بأقوالي آثرتُ أن أكتم عنه نبأ القصاصة التي سقطت من الطبيب وهو يهرع خارجاً من المحطة.

* * *

الفصل الثالث

بعد شيء من التردّد انطلقتُ إلى بيت اللورد ناسبي صاحب صحيفة الديلي بادجيت. وكان من المشكوك فيه أن يقابل مثل هذا الرجل الخطير الشأن أيّ إنسان يطرق بابه، ولكنني اتخذت الحيطة لذلك فأخذت معي بطاقة تحمل اسم المركيز دي لومسلي، وكنت قد عثرت عليها في بيت السيد فليمنغ، وهو من مشاهير الصيّادين الذين تُردّد الصحف اسمهم. ودون وازع من ضمير أو بادرة من الندم كتبتُ على البطاقة هذه الكلمات: «أرجو أن تمنح الآنسة بيدنغفيلد بضع دقائق من وقتك».

وأفلحت الخدعة واستقبلني اللورد ناسبي على الفور معتقداً أنني سكرتيرة الصيّاد الذائع الشهرة، وسألني باقتضاب: ما الذي يريده المركيز لومسلي؟ أنت سكرتيرته طبعاً، أليس كذلك؟

وببرود وهدوء أجبت قائلة: أريد أن أبدأ بأنني لا أعرف المركيز دي لومسلي، كما أنه لا يعرف شيئاً عني أيضاً، والبطاقة التي بعثت بها إليك أخذتها سرّاً من البيت الذي أقيم فيه، أمّا الكلمات المكتوبة على البطاقة فأنا التي كتبتُها بنفسي، وقد

فعلتُ هذا لأنني أردت أن أقابلك لأمر هامّ.

فحملق اللورد برهة فيّ، فخُيّل إليّ لحظة أنه سيهمّ بأن يصرخ في وجهي ويطردني من بيته، ولكنه أخيراً ابتلع ريقه مرّتين ثم خاطبني بهدوء قائلاً: أنا معجب بثبات أعصابك أيتها الشابة، والآن ها أنت قد قابلتِني، فإن راق لي حديثك فسوف أمنحك دقيقتين من وقتي.

فقلت: إنهما تكفيان جداً، وسوف يثير حديثي اهتمامك؛ فهو يتعلّق بلغز فيلاّ الطاحونة.

وبإيجاز سردت عليه كل ما لديّ من معلومات عن حادث قتيل النفق، وعندما فرغت من حديثي سألني فجأة: وما الذي تعرفينه عن شكل الرؤوس الآدمية؛ فقد ذكرتِ لي أن رأس الطبيب المزعوم كان عريضاً.

فذكرت له أن أبي كان من مشاهير رجال الحفريات وعِلم الأجناس وأن هذا كان مصدر خبرتي.

- ما لديك من معلومات ضئيل غير قاطع ولا يمكن أن نتّخذه أساساً لخطّة نسير على هداها.

- أنا أعلم هذا.

- إذن فماذا تريدين مني؟

- أريد أن تعيّنني مخبرة بصحيفتك ليتاح لي متابعة الأمر والتحرّي عن خفاياه.

- لا يسَعني أن أفعل هذا؛ فلديّ محرّر خاصّ يتولى مثل

هذه الشؤون.

- ولكن ليس لديه معلوماتي.

- وهل تحتفظين بشيء آخر خلاف ما ذكرتِه لي؟

فلما أومأتُ إيجاباً تساءل: وما هذا الشيء يا ترى؟

فقلت: عندما استقلّ الطبيب المزعوم المصعد ليخرج إلى الشارع سقطت من جيبه قصاصة من الورق، فما كان مني إلا أن التقطتها، وكانت تفوح منها رائحة النفتالين، أي نفس الرائحة التي كانت تنبعث من معطف القتيل، فأدركت على الفور أن الطبيب استولى عليها من جيب القتيل. وكان مكتوباً على الورقة بضعة أرقام وكلمات.

- إذن دعينا نرى هذه القصاصة.

ومدّ إليّ يده فقلت باسمة: لكنها سرّي الذي أحتفظ به لنفسي.

فقال اللورد: اسمعي، يمكنك أن تتابعي البحث، فإذا اهتديت إلى شيء ذي أهمّية فابعثي به إليّ، وعند ذلك أقرّر ما إذا كنت تصلحين محرّرة في الديلي بادجيت أم لا. يجب أن تقدّمي إليّ شيئاً مفيداً أولاً.

وبعد لحظات كنت في الطريق وقد طار بيَ الفرح.

* * *

الفصل الرابع

ما إن عُدتُ إلى البيت حتى أخرجت القصاصة التي وقعت من الطبيب المزعوم وانكببت عليها أتأمّلها. كانت هناك خمسة أرقام، كما كانت هناك نقطة بعد الرقمين الأولَين من ناحية اليسار، فغمغمت أقول لنفسي: ١٧ ثم ٢٢ ثم ١، ولكن أيّ معنى لهذا؟ هذه أرقام بلا معنى.

ثم عُدت أجمعها: ١+٧=٨، ثم ٨+١+٢+٢=١٣.

وأردفت أخاطب نفسي قائلة: والعدد ١٣ رقم منحوس، فهل أراد الطبيب المزعوم أن يقدّم إنذاراً؟ كان أولى به أن يكتب الإنذار واضحاً، أي رقم ١٣ مجرّداً.

ثم لاحظت أن هناك مسافة فراغ صغيرة بين الرقم ١ والرقم ٢، فهل لذلك الفراغ معنى؟ وبدأت أولي اهتمامي للكلمة المكتوبة على القصاصة. لقد كانت الكلمة هي «قصر كيلموردن»، وهذا دون شكّ اسم مكان ما، فلّعله بيت إحدى الأسرات الأرستقراطية، فما الذي ترمي إليه هذه العبارة؟ وريثٌ مخطوف أو غائب؟ رجل يطالب باللقب؟ كنز مدفون؟ أو ربما كان قصراً مهدّماً مخرّباً. وأخذت بنظرية الكنز المدفون،

فالأرقام عادة تدلّ على عدد الخطوات التي يمشيها الإنسان أماماً أو يساراً أو يميناً كي يصل إلى الكنز المدفون، ولكن الأهمّ من هذا أن أعرف أين يقع قصر كيلموردن.

فمضيت إلى المكتبة وعدت بعد ساعة أحمل مجموعة من كتب الدليل التي تتحدّث عن تاريخ النبلاء والقصور الأثرية العتيقة، ثم بدأت أتصفّحها بحثاً عن كلمة كيلموردن، ولكنني لم أعثر فيها على أثر لتلك الكلمة فخطرت لي فكرة أخرى، وهي أنه ربما كان ذلك المكان فندقاً أو مقهى، فإذا كان الأمر كذلك فسوف أجد مشقّة كبرى في الاهتداء إلى المكان؛ فقد يستحيل عليّ أن أرتاد لندن بما فيها من شوارع لا حصر لها سعياً وراء ذلك المكان، قصر كيلموردن، ثم ما أدراني أن هذا المكان المجهول في لندن وليس في مدينة أخرى؟

واستولت عليّ الحيرة ولم أعُدْ أدري كيف أتصرّف، ثم خطر لي أنه لا بدّ لي أن أزور قبل كل شيء مكان الجريمة، فذهبت إلى مكتب السماسرة فعرضوا عليّ قائمة بالبيوت الخالية، ولكنهم لم يذكروا من بينها فيلاّ الطاحونة، فقلت لهم: هل لديكم شيء آخر؟

وأجاب الكاتب بشيء من التردّد: لا، ولكن الواقع أن لدينا ذلك البيت المعروف باسم فيلاّ الطاحونة.

- أتعني البيت الذي عثروا فيه على امرأة مخنوقة؟ حسناً، أعطِني تصريحاً بزيارته؛ فهو إن أعجبني فلا شكّ أنهم سيخفضّون إيجاره مراعاة لهذه الظروف فأكون أنا الرابحة.

وبعد نصف ساعة كنت أطرق باب السيدة جيمس المشرفة

على فيلاّ الطاحونة، فسألتني: ألم تقرئي نبأ الفاجعة التي وقعت هنا؟

- بل قرأتها، ولكنني لا أبالي، فإذا أعجبني فلن أتردّد في أن أستأجره.

- أنت فتاة شجاعة حقاً.

ثم استطردت تتحدّث عن القاتل قائلة: لقد كان رجلاً أنيق الثياب لطيف الحديث، وكان يرتدي بدلة بنية حسنة التفصيل، ولا شكّ أنه كان جنديّاً؛ فقد كانت له مشية عسكرية.

- ولكن ما شأنه بتلك المرأة حتى يقتلها؟

- مَن يدري؟ لعل تلك المرأة الأجنبية كانت صديقته ثم خانته وغدرت به.

- هل كانت شقراء أم سوداء الشعر؟

- بل كانت ذات شعر أسود ولكن وجهها كان شديد البياض، كما أن لها شفتَين رفيعتَين مضمومتَين تدلاّن على القسوة.

- هل كانت تبدو عصبية مهتاجة الأعصاب؟

- بل على العكس كانت هادئة ولا تكاد الابتسامة تفارق شفتيها.

- والسير بيدلر صاحب البيت، أمَا زال في مدينة كان؟

- لقد حضر بعد سماعه بالمأساة، وكان في صحبته سكرتيره السيد باغيت الذي ضاعف أجري كي لا أستقيل.

- وما المدّة التي أمضاها القاتل داخل البيت؟

- لم يلبث فيه أكثر من خمس دقائق ثم جاء إليّ يحمل المفاتيح، ولم أفطن حينئذ إلى أنه كان بادي الانفعال والانزعاج.

وكنت حريصة أن أوجّه إليها أسئلتي بطريقة عارضة حتى لا تفطن إلى أنني أقوم باستجوابها، ولكنني وجدتني مضطرّة إلى أن أوجّه إليها هذا السؤال: ولكن ما شكل رأسه؟ أهو مفلطح أم منبعج؟

- لا هذا ولا ذاك، لقد كان رأسه عادي الشكل كغيره من الناس.

ثم ناولتني المفاتيح فذهبتُ إلى فيلاّ الطاحونة وأنا أفكّر فيما سمعتُ منها وفيما رأيتُ بعيني، فالأوصاف التي أدلت بها السيدة جيمس لا تنطبق على قتيل النفق. إذن لم يكن هو الذي دخل في أعقابها. ولم يكن لديّ شك في أن قتيل النفق اتفق مع المرأة الأجنبية على اللقاء في فيلاّ الطاحونة لسبب ما، وقد حصل كل منهما على تصريح بزيارة البيت ولكن الذي حدث وهو ينتظر القطار ليلحق بها أنه لمح الطبيب المزعوم، فاستولى عليه الرعب لأن بينهما معرفة سابقة فسقط على القضبان ومات مصعوقاً بالتيار الكهربائي، ثم أسرع الطبيب المزعوم إلى الفيلاّ ففاجأ المرأة وقتلها. كانت هذه هي نظريّتي، فهل أستطيع أن أقيم الدليل على صحّتها؟ ثم وضعتُ المفتاح في ثقب الباب ففتحتُه ودخلت، ثم شعرت برجفة ورهبة؛ فقد كان يخيّم على البيت شبح الموت.

* * *

الفصل الخامس

تناولت مفكّرتي من حقيبتي ورسمت عليها بالقلم الرصاص رسماً توضيحيّاً لغرفة الجريمة وأبوابها ومنافذها، وبينما أنا أعيد القلم إلى الحقيبة انفلت منّي ونفذ من تحت باب خزانة صغيرة مشيّدة في الجدار تحت النافذة، ففتحت باب الخزانة فتدحرج القلم مرة أخرى واستقرّ في أحد الأركان، فمددت يدي إلى داخله أتحسّس المكان بحثاً عن القلم، وإذا بيدي قد مسّت شيئاً فأخرجته فإذا به لفافة فيلم أسطواني الشكل. وساءلت نفسي: أيكون فيلماً قديماً مملوكاً لصاحب البيت السير أوستاس بيدلر نسيه في الخزانة؟ أم يكون هو الشيء الذي جاءت المرأة الأجنبية إلى البيت، ثم القاتل في أثرها، كي يبحثا عنه؟ ومَن الذي أودع الخزانة هذا الفيلم؟ أهي المرأة أم الرجل؟

ثم تذكّرتُ أن محتويات حقيبة القتيلة كانت سليمة لم تُمسّ؛ فلو أنها فُتحت في أثناء عراكها مع القاتل وانزلق منها الفيلم لكان محتملاً جداً أن تنزلق منها أيضاً بعض قطع النقد المعدنية، ولما كان هذا لم يحدث فأغلبُ الظنّ إذن أن الرجل هو الذي وضع الفيلم في الخزانة. وشممتُ الفيلم فإذا رائحة النفتالين تفوح منه بشدّة كما فاحت من قبل من معطف القتيل

ومن القصاصة التي سقطت من يد الطبيب المزعوم، ثم عثرت على قطعة صغيرة من القماش عالقة بحافّة الخزانة فعرفتُ أنها هي مصدر هذه الرائحة، فهل يكون قتيل النفق هو الذي أودع في الخزانة الفيلم؟ ولكن لا، فقد يكون الطبيب المزعوم هو الذي استولى على الفيلم من جيب قتيل النفق كما استولى على قصاصة الورق، ثم انزلق منه الفيلم إلى الخزانة في أثناء عراكه مع المرأة.

ثم أعدت المفاتيح إلى حارسة الفيلاّ ورجعت إلى المدينة. وفي البيت عُدت أفحص قصاصة الورق من جديد وأحاول أن أجد لأرقامها وكلماتها تفسيراً جديداً. فلْنفرض أن هذه الأرقام ١٧، ٢٢، ١ تماثل تاريخ يوم معيّن، فما هذا اليوم؟ ألا يجوز أن يكون اليوم السابع عشر من الشهر الأوّل أي شهر كانون الثاني (يناير) سنة ١٩٢٢؟ يجب أن أهتدي سريعاً إلى هذا المكان المسمّى قصر كيلموردن؛ فاليوم هو الرابع عشر من كانون الثاني (يناير) سنة ١٩٢٢ ولم يبقَ على اليوم الموعود يوم ١٧ إلا أيام ثلاثة.

وفي ساعة مبكّرة من صباح اليوم التالي ذهبتُ مبكّرة إلى محلّ تحميض الأفلام وطبعها، وطلبت من العامل أن يطبع لي الفيلم، فلمّا فحصَه نظر إليّ باستغراب وقال: لا شك أنك أخطأت يا سيدتي؛ فهذا هو الجزء غير الحسّاس من الفيلم.

فغادرت المحلّ وأنا أشعر بالخيبة والفشل. وبينما أنا راجعة إلى داري لمحتُ في إحدى واجهات المكاتب السياحية صورة سفينة تشغل الواجهة وقد كُتب تحتها: «الباخرة قصر

كيلموردن». إذن هذا هو المكان المجهول الذي حفيت قدماي بحثاً عنه؟! ثم دفعتُ باب المكتب وسألت عن مواعيد الباخرة قصر كيلموردن، فأتاني الجواب بأنها ستغادر ميناء ساوثمبتون يوم ١٧ الجاري في طريقها إلى كيب تاون، فلم أتردّد لحظة واحدة وخاطرت بكل ما أملك من مال لأحجز لنفسي تذكرة على الباخرة كيلموردن.

* * *

الفصل السادس

مقتطفات من مذكّرات السير أوستاس بيدلر

سكرتيري الخاصّ جاي باغيت شاء أن يدفع بي إلى خضمّ الأحداث العنيفة المثيرة، فقد دخل عليّ ذات يوم وبين يديه برقية مفضوضة وعلى وجهه أمارات العبوس. وباغيت سكرتير مجدّ نشيط لا يفكّر في شيء سوى العمل.

وفي الأسبوع الماضي أخذ يتحدّث عن فلورنسا وجمال جوّها وروعة تماثيلها وتُحفها، فخطر لي أن أُريح نفسي منه ولو أسبوعاً واحداً فابتدرتُه بقولي: غداً ستسافر يا صديقي العزيز إلى فلورنسا وسأتكفّل بجميع نفقاتك.

وكانت نفقاته ثمناً رخيصاً للراحة التي شعرت بها في أثناء غيابه؛ فقد فعلت خلال هذا الأسبوع كل ما يحلو لي دون أن أكون تحت سيطرة سكرتير يوجّهني ويرشدني إلى ما يجب أن أفعل أو لا أفعل، ولكنني فوجئتُ به ذات صباح والبرقية في يده فعرفت أن عهد الحرّية قد انتهى، ثم قال لي: هي من مارلو. لقد قُتلت امرأة في فيلاّ الطاحونة.

فضربتُ كفاً بكفّ وقلتُ وقد ثار اهتمامي: ولماذا في بيتي أنا بالذّات دون الناس أجمعين؟! ولكن مَن الذي قتلها؟ ومَن تكون تلك المرأة؟

-لم يرِدْ في البرقية شيء عن هذا، وأظنّ أنه يجب أن نعود إلى إنكلترا على الفور؛ فلا بدّ أن تستمع الشرطة إلى أقوالك.

وكان على حق في هذا، فلم يكن أمامي مفرّ من أن أقطع رحلتي وأتخلّى عن إجازتي في الريفييرا. وسافرت إلى إنكلترا، وهدّأتُ من ثائرة السيدة جيمس حتى لا تتخلّى عن حراسة فيلاّ الطاحونة، ولكي أرضيها وأغريها ضاعفتُ أجرها. وفي النادي التقيت بأوغستوس ميلاري أحد كبار موظّفي وزارة الخارجية، وقد مال إلى أذني وقال همساً: لقد اكتشفنا أخيراً وثائق خطيرة يجب أن نسلّمها فوراً إلى الجنرال سمتس، ولكن يكاد يكون من المستحيل أن نفعل هذا خشية أن يتعقّب الجواسيس مندوبنا.

ولوح أوغستوس ميلاري بيده وهو يقول: هل صحيح ما بلغني أنك تنوي أن تسافر قريباً إلى جنوب إفريقيا؟ أنت مساهم، فيما أعلم، في بعض الشركات الكبيرة في روديسيا.

فقلت: أصبتَ، وفي نيّتي أن أزور شركاتي بعد شهر تقريباً.

- ألا يمكنك أن تعجّل بهذه الزيارة؟ ألا يمكنكَ أن تقوم بها هذا الأسبوع بالذات؟

- أستطيع طبعاً، ولكن ما الذي يدعوني إلى هذا؟

- أنت بذلك سوف تصنع لبلادك خدمة جليلة، فالوزير

يريد أن يعهد إليك بالوثائق التي يبغي تسليمها للجنرال سمتس؛ فالجواسيس لن يرتابوا في أمرك لأنك رجل أعمال لا شأن لك بالسياسة.

فتريّثت برهة أتدبّر الأمر ثم قلت: لا بأس، لقد قبِلت.

- شكراً لك يا بيدلر، أنا لن أنسى لك هذه المنّة. غداً سأبعث إليك باللفافة مع رسول خاصّ، وعليك أن تسلّمها إلى الجنرال سمتس يداً بيد، والباخرة قصر كيلموردن ستبرح الميناء يوم السبت القادم فاحجز لك مقصورة فيها.

ثم غادرنا النادي معاً ووقفنا على الرصيف قبل أن نفترق، وقد أخذ يكرّر عبارات الشكر ويذكّرني بأن أحجز لي مكاناً على الباخرة قصر كيلموردن.

وفي مساء اليوم التالي جاء إلى بيتي رجل يطلب مقابلتي وذكر لخادمي أنه موفَد إليّ من السيد ميلاري بوزارة الخارجية، وقد قال لي الزائر: لقد أوفدني السيد ميلاري لأصحبك إلى جنوب إفريقيا بصفتي سكرتيراً لك.

- ولكن أنا لديّ سكرتيري الخاصّ.

- ولكنه متغيّب الآن.

- هذا لأنه مُصاب بالصفراء.

- وهل أنت على يقين حقاً من أنه مريض بالصفراء؟ إن السيد ميلاري يتوقّع أن يهاجم الجواسيس سكرتيرك ليزيحوه من الطريق، ولذلك يريد منك أن تصطحبني لأكون بديلاً له ولأتولّى

في الوقت ذاته السهر عليك.

فقلتُ باستسلام: فليكن إذن.

- ولكن أرجو أن تكتم عن كل إنسان أنني سأرافقك وليكن الأمر سرّاً بيني وبينك، كما أرجو أن تعدّ جواز السفر الخاصّ بي وأن تذكر فيه أنني سكرتيرك.

وحين همّ بالانصراف سألته: بالمناسبة، ما اسمك؟

فأجاب: أظن أن هاري رايبورن يمكن أن يكون اسماً مناسباً لائقاً.

* * *

الفصل السابع

آن بيدنغفيلد تتابع سرد قصّتها

ليس من الغريب أن يُصاب المرء بدوار البحر، فأسرعتُ إلى مقصورتي ولبثت فيها ثلاثة أيام طريحة الفراش وقد نسيت المهمّة التي سافرت من أجلها. وفي اليوم الرابع لملازمتي الفراش في مقصورتي جاءت إليّ الوصيفة تحثّني على أن أصعد إلى السطح لأستمتع بالهواء الطلق، فاستجبت إلى نصحها وتدثّرت بأغطية ثقيلة وتهالكت فوق أحد مقاعد البحر وأنا واهنة ضعيفة بادية الإعياء، ثم أقبل إليّ أحد الركّاب فحيّاني وقال: لو أنك نظرت إلى وجهك في المرآة لرثيت لنفسك؛ فأنت مصفرّة الوجه وفي غاية الضعف.

- هذا صحيح، فأنا أشعر أنني متعَبة جداً.

فاستطرد قائلاً: غداً ترسو الباخرة في الخليج، وسوف أصحبكِ في القارب إلى الشاطئ.

ولبث معي بضع دقائق يحاول أن يسرّي عني بالحديث، ثم مضى منصرفاً ورحمني من ثرثرته. وأخذتُ أنظر إلى المسافرين، فاسترعت بصري سيّدة في نحو الثلاثين من عمرها في تصفيف

شعرها لمسة من ذوق باريس، وكان في خطوها الثابت ما يوحي بأنها تعتقد أنها ربّة السفينة ومالكتها، فتمنّيت لو أنني تعرفت إليها لأبادلها الحديث.

وعند ظهر اليوم التالي ألقت الباخرة مراسيها في خليج ماديرا، وكنت لا أزال أحسّ شيئاً من الإعياء فاكتفيت بالنظر إلى الشاطئ، ولكن السيدة المتعالية نزلت إلى الشاطئ، وحين رجعت كان في صحبتها رجل طويل القامة أسود الشعر ملوّح البشرة ذو خطوة عسكرية، وكان قد سبق لي أن لمحته في الصباح الباكر يتمشّى على سطح المركب. وعندما حملت إليّ وصيفة الباخرة غطاء نوم إضافي عندما اشتدّت برودة الجوّ سألتُها مَن تكون تلك الحسناء المتعالية الأنيقة فأجابتني قائلة: هذه إحدى سيّدات المجتمع الشهيرات، السيدة كلارنس بلير، ولا شكّ أنك رأيت صوَرها كثيراً في الصحف وقرأت عنها.

وكانت السيدة بلير معروفة بأنها من أكثر النساء أناقة وأنها إحدى نجمات المجتمع، ثم لاحظتُ أن جميع الرجال في السفينة يحومون حولها ويحاولون أن يتقرّبوا إليها ولكنها كانت تصدّهم بلطف ورقّة.

وفي صباح اليوم التالي فوجئتُ بالسيدة بلير تتوقّف عند مقعدي وتسألني عن صحّتي راجية أن أكون قد أصبحت أحسن حالاً، فشكرتُها على لطفها ومجاملتها، فقالت السيدة بلير وهي تجلس على كرسيّ بجانبي: الهواء في أغلب مقاصير السفن فاسد، فهل مقصورتك داخلية أم تُشرف على الماء؟

فلمّا أجبتُها بأنها مقصورة داخلية قالت: يا لك من مسكينة!

ولماذا لا تبدلين بها غيرها؟ لقد غادر السفينة كثير من الركّاب في ماديرا فخلت مقاصير كثيرة. تحدّثي إلى المراقب ونحن على مائدة الغداء لينقلك إلى مقصورة أخرى، فهو شابّ لطيف وقد نقلني إلى مقصورة جميلة عندما أفضيت إليه برغبتي.

ثم وضعت يدها تحت ذراعي وهي تقول: هيا تحاملي على نفسك واستندي إلى ذراعي لنمشي قليلاً.

ولحق بنا زميلها الكولونيل ريس بعد لحظات قائلاً: قمّة جبل تينيريف تتراءى من الناحية الأخرى من السفينة، ويحسن بنا أن نلتقط لها صورة على سبيل التذكار.

وكانت قمّة الجبل مغطاة بالثلوج فأسرعت السيدة بلير إلى مقصورتها لتأتي بآلة التصوير، ثم عادت بآلة التصوير خلال لحظات وهمّت بأن تلتقط بعض الصوَر للجبل، ولكنها ما لبثت أن غمغمت قائلة: واأسفاه! لقد فرغ الفيلم.

فقال الكولونيل يمازحها: هكذا الطفل دائماً، لا يعرف كيف يستفيد من اللعبة التي بين يديه!

فضحكت السيدة بلير وقالت: ولكن الطفل ما زال يحتفظ بفيلم آخر احتياطي.

ثم أخرجت فيلماً جديداً من جيب سترتها، ولكن هزّة فجائية من المركب أدّت إلى اختلال توازنها فتشبّثت بسياج السفينة وأفلت الفيلم من يدها فطار عبر السياج، فتساءلت السيدة بلير: تُرى هل سقط في البحر أم استقرّ في الطابق السفلي؟

قال الكولونيل ريس: أغلب الظنّ أنه وقع في الماء.

وفي تلك اللحظة رنّ جرس الطعام يدعو الركّاب إلى تناول الإفطار فهبطوا جميعاً إلى قاعة المائدة، وعندئذ طلبتُ من المراقب أن ينقلني إلى مقصورة أخرى تشرف على البحر بدلاً من تلك المقصورة الداخلية الخانقة التي أشغلها، فوعد بتلبية رغبتي. وقد أثار انتباهي من بين الجالسين إلى الموائد رجل لم ألمحه من قبل، وكان طويل القامة أسمر الوجه له سحنة ترتسم عليها معالم القسوة والشرّ والخشونة، ولما كان مراقب السفينة يشاركني مائدتي سألته عن الرجل فقال: هذا سكرتير السيد أوستاس بيدلر، وكان قد لزم مقصورته منذ بداية الرحلة مُصاباً بدوار البحر، وهو يُدْعى باغيت، وللسير أوستاس سكرتير ثانٍ ولكنه لم يظهر حتى هذه اللحظة، فقد أنهكه الدّوار فلازم غرفته.

فقلت لنفسي: إذن فالسير أوستاس بيدلر من بين ركّاب هذه الباخرة، هذه مصادفة عجيبة! ولكنها مصادفة رائعة؛ فسوف تتيح لي مقابلة صاحب البيت الذي خُنقت فيه الحسناء الأجنبية.

واستطرد المراقب قائلاً: والسير أوستاس هو ذلك البدين الجالس إلى المائدة بجانب الربّان.

وتأمّلت وجه السكرتير باغيت فازددت مقتاً له؛ فقد كان له وجه شاحب ورأس منبعج ومعالم سحنته تثير التقزّز لما فيها من سمات الشرّ. وما إن غادر مائدته حتى كنتُ في أعقابه، فسمعتُه يقول للسير أوستاس: سأطلبُ منهم أن يغيّروا المقصورة في الحال بأخرى أكثر اتساعاً أو أن يعطونا مقصورة إضافية؛

فالعمل مستحيل في مقصورتنا والحقائب مكدّسة فيها بشكل سيّئ.

ثم تابعت طريقي فلم أتبيّن ما دار بينهما من حديث بعد ذلك، ثم وجدت الوصيف المكلّف بمقصورتي منهمكاً في نقل حاجاتي فابتدرني بقوله: مقصورتكِ الجديدة التي ستنتقلين إليها رائعة، المقصورة رقم ١٣.

- رقم ١٣؟ يا إلهي! أنا أتشاءم من هذا الرقم! ألا توجد مقصورة أخرى خالية؟

ففكّر الوصيف هنيهة ثم قال: بلى، المقصورة رقم ١٧ قد خلت هذا الصباح، ولكنها خُصّصت لشخص آخر، غير أن متاعه لم يُنقل إليها بعد، وما أحسب أنه سيرفض أن ينزل لكِ عنها.

ثم أسرع الوصيف إلى المراقب يستأذنه في نقل متاعي إلى رقم ١٧، وما لبث أن عاد متهلّلاً فرحاً وقد أحرز الموافقة، ثم قادني من فوري إلى مقصورتي الجديدة. وفي تلك اللحظة ظهر ببابي ذو السحنة المتوحّشة، وأعني به باغيت سكرتير أوستاس فقال: ولكن معذرة يا آنسة؛ فهذه المقصورة محجوزة للسير أوستاس بيدلر.

فأجابه الوصيف: لقد حُجزت لكم رقم ١٣ بدلاً منها؛ فهي أوسع وأرحب.

- ولكن رقم ١٧ هي المحجوزة باسمنا، وأنا لا أريد سواها.

ثم ارتفع صوت جديد يقول: عفواً أيها السادة؛ فرقم ١٧ هي مقصورتي.

وكان القادم الجديد هو قسّ شاطرني الطعام ذات مرة وصدّع رأسي بحديثه المملّ المتكرّر.

فردّ عليه باغيت قائلاً: رقم ١٧ محجوزة للسير أوستاس بيدلر.

فقال الوصيف يخاطب القسّ: أنت يا سيدي ستنزل في رقم ٢٨.

- أنا مُصرّ على رقم ١٧ فقد وعدتَ بأن تحجزها لي.

وهكذا كنا ثلاثة نتنازع على المقصورة رقم ١٧، أنا وباغيت سكرتير السير أوستاس بيدلر والقس شيستر، وأخذنا نتجادل فاشتدّ بيننا النقاش وعلت أصواتنا، فما كان مني إلا أن انسحبتُ فجأة وأسرعت إلى المراقب، وبذلك الصوت النسائي الرقيق الذي يفيض بالرجاء قلت له: لقد وعدتَني برقم ١٧، ولن تخذلني طبعاً، أليس كذلك؟

ولم يخذلني الرجل طبعاً. وكيف يفعل وقد كانت نظراتي إليه تفيض رجاءً واستعطافاً؟! وفي المساء ذهبتُ إلى مقصورتي الجديدة رقم ١٧ فوجدتُ الوصيف ينتظرني ببابها ووجهه متجهّم، ثم ابتدرني قائلاً: هناك رائحة كريهة جداً تفوح من مقصورتكِ، ولا أدري كيف حدث هذا يا سيدتي.

وفعلاً كانت الرائحة النتنة لا تُحتمَل ولا تُطاق، وبحكم عملي كممرّضة في أثناء الحرب أدركت على الفور أن هذه

الرائحة رائحة مادّة الحلتيت، فمن يكون ذلك الذي وضع الحلتيت في غرفتي كي يحملني على التخلّي عنها؟ لا شكّ أنه واحد من الاثنين اللذين نازعاني عليها، باغيت أو القسّ شيستر، فما السرّ في هذا التشبّث بالمقصورة رقم ١٧؟!

وفجأة برز الرقم ١٧ في ذهني فأثار الكثير من الاحتمالات، فأخذت أفكّر وقلتُ في نفسي: المقصورة رقم ١٧ والباخرة أبحرت يوم ١٧، ثم القصاصة التي وقعت من الطبيب المزعوم ومكتوب عليها نفس الرقم أي ١٧، ٢٢، ١ مع اسم الباخرة قصر كيلموردن، وغداً هو يوم ٢٢ من الشهر الأوّل أي كانون الثاني (يناير)، فهل المقصود برقم ١٧ هنا هو المقصورة رقم ١٧؟ لا بدّ أن لهذه المقصورة سرّاً خفيّاً، فما هذا السرّ؟

* * *

الفصل الثامن

في تلك الليلة أويت إلى فراشي مبكّرة مدّعية أنني مصابة بصداع شديد، ولكنني لم أُسلم نفسي إلى النوم بل رقدت في سريري يقظة منتبهة أترّقب ما سوف يحدث، فغداً هو يوم ٢٢ المكتوب على قصاصة الورق. ثم أرسلت الساعة دقّاتها لتعلن أنها الواحدة بعد منتصف الليل فخفق قلبي بشدّة، ولكن مهلاً. ما هذا؟! هناك وقع خطوات سريعة خفيفة تركض في الممرّ أمام مقصورتي، ثم فجأة دُفع باب مقصورتي بعنف واقتحم المكان رجل كاد يسقط على وجهه، وردّ الباب وراءه وهتف بي قائلاً: أنقذيني! أتوسّل إليك، إنهم يتبعونني!

وقفزت من الفراش فسحبت حقيبتي الضخمة من تحت الحوض وأشرت إليه بأن يتوارى تحته، ثم دفعت الحقيبة إلى الوراء ورفعت غطاءها حتى تحجب جسمه عن النظر، ثم نفشت شعري ومِلْت على الحقيبة وتناولت منها قطعة من الصابون، فلو أن أحداً فتح الباب الآن ورآني منفوشة الشعر وصابونة في يدي لأيقن أنني سأغسل شعري ولاستبعد أنني أخفي رجلاً في غرفتي وهذه حالتي.

ثم قُرع الباب وفُتح دون أن ينتظر الطارق إذناً، فرآني أمام الحوض أغسل شعري والصابونة في يدي، وحين أدرتُ رأسي رأيت إحدى وصيفات الباخرة، وصيفة لم أرَها من قبل قالت باحترام: معذرة يا سيدتي، لقد خُيّل إليّ أنك كنت تنادين.

فأجبتُ: لا، لم أكن أنادي. لقد شعرتُ بصداع حادّ فرأيت أن أغسل رأسي.

فقالت: لقد أفرط أحد الركّاب في الشراب وخشينا أن يقتحم مقاصير السيّدات فيزعجهن.

- هذا أمر مزعج!

- إذا اقتحم غرفتكِ فبادري بضغط الجرس.

ثم أغلقت الباب وراءها، وسحبت الحقيبة وأهبت بالرجل أن يخرج ولكنه لم يُلَبِّ النداء، فناديتُه مرة أخرى فلم يُجِب، ثم هززته فلم يتحرّك. لا شك أنه أفرط فعلاً في الشراب فغرق في النوم.

وفجأة أخذت عيني بقعة حمراء على أرض المكان، واستجمعت كل قوّتي وجررت الرجل إلى وسط المقصورة فوجدت أنه لم يكن ميّتاً وإنما كان مغمىً عليه، وتبيّنت على الفور السبب في إغمائه، فقد كان هناك جُرح صغير غائر تحت كتفه الأيسر. فنزعتُ سترته ومضيت أغسل الجرح بالماء البارد فتحرّك وانتبه من إغمائه، ثم تحامل على نفسه ونهض واقفاً، فقد كان قويّاً في عنفوان شبابه، ثم قال لي: شكراً لك. أنا لا أريد شيئاً آخر.

- ولكن يجب أن أضمّد جرحك.

- بل يجب أن أنصرف على الفور.

ثم مشى إلى الباب، ولكنه ما لبث أن ترنّح وكاد يسقط أرضاً فتلقّيته بين ذراعَيّ فأرقدتُه على الأريكة ومضيت أضمّد الجرح بيدٍ مدرّبة حاذقة، وحين فرغت من عملي كان قد استعاد حيويّته ونشاطه فقلت له: والآن حدّثني بما جرى.

- يؤسفني أنني لن أستطيع أن أشبع فضولك.

ثم نهض واقفاً واتجه إلى الباب واستقرّت يده على المقبض فقلت له أتحدّاه: كان يجب على الأقلّ أن تشكرني لأنني أنقذتُ حياتك.

فتأمّلني برهة ثم قال بلهجة شرسة: أنا لن أشكرك ولكنني لن أنكر فضلك عليّ، وفي يوم من الأيام سأوفّيك دينك.

ثم فتح الباب وأولاني ظهره، وما لبث أن غاب عن عيني وطوته ظلماتُ الممشى.

* * *

الفصل التاسع

حين صعدت إلى سطح الباخرة في ساعة متأخّرة من صباح اليوم التالي جاءت إليّ السيدة بلير تحيّيني بقولها: كيف حالك اليوم؟ يا لك من فتاة مسكينة لطيفة! والآن هيا حدّثيني عن نفسك أيتها الحسناء، ما الذي يدعوك إلى زيارة جنوب إفريقيا؟

فحدّثتها عن أبي وكيف كان من كبار العلماء، فقالت لي: إذن فأنت ابنة شارل بيدنغفيلد الذائع الصيت؟

ثم قالت: ولكن ما لك متعَبة اليوم؟ ألم تنامي جيّداً؟

- نعم، لم أنَم جيّداً.

- أنا أيضاً لم أنَم جيّداً؛ فقد أيقظني من نومي في منتصف الليل وصيف أحمق ليعيد إليّ الفيلم الذي طار من يدي أمس عندما هممتُ بأن ألتقط صورة لقِمّة الجبل. تصوّري أن ذلك الأحمق أنفذ يده من فجوة أنبوبة التكييف وأسقط الفيلم فسقط فوق وجهي فصرخت فزعاً؛ فقد حسبتُه فأراً أراد أن ينقضّ عليّ.

ثم رأيتُ الكولونيل ريس مقبلاً علينا فقلت: ها هو ذا

رجُلك قد جاء.

- إنه ليس رجلي، بل هو مجرّد صديق.

فنهضت واقفة وأنا أقول: لحظة واحدة ريثما ألفّ شعري بوشاح.

ثم مضيت إلى مقصورتي لأعود بالوشاح، ولكنني ما كدت أفتح الدُّرج حتى أيقنت أن يداً عبثت بحاجاتي، وما إن ألقيت نظرة على الأدراج الأخرى حتى أدركت أن اليد الخفية المجهولة امتدّت إليها أيضاً. تُرى مَن الذي فتّش مقصورتي؟ وعن أيّ شيء كانوا يبحثون؟ ثم مَن يكون ذلك الرجل الذي اقتحم مقصورتي في جوف الليل مصاباً بجرح في كتفه؟ أنا لم ألتقِ به قطّ منذ ركبتُ الباخرة، فأين كان مختبئاً؟ وهل هو أحد موظّفي السفينة أم واحد من الركّاب؟ ولماذا هاجموه وطعنوه؟

ثم جلست على حافّة الفراش ومضيت أُحصي في ذهني من يمكن أن يكونوا محلّ شكّ على النحو التالي: أولاً السير أوستاس بيدلر؛ فهو صاحب فيلاّ الطاحونة التي وقعت فيها جريمة القتل. ثانياً السيد باغيت سكرتير السير أوستاس ذو السّحنة الشرّيرة، وإصراره العجيب على النزول في المقصورة رقم ١٧ مما يدعو إلى الاشتباه. ثالثاً القسّ المحترم شيستر؛ فهو أيضاً كان مُصِرّاً على النزول في الغرفة رقم ١٧.

ثم رأيتُ أن أبادر بالتحرّي عن هؤلاء الثلاثة والتحدّث إليهم علّني أكتشف خبيئة نفوسهم. ورأيت القسّ المحترم مستنداً إلى السّياج ينظر إلى البحر وهو يتناول قدحاً من الشاي فأقبلت

عليه أقول: أرجو أن تغفر لي تشبّثي بالمقصورة رقم ١٧.

فأجاب بفتور الرجل الصادق الإيمان: أنا لا أنقم على أحد ولا يمكن أن أحمل له ضغينة، وكل ما في الأمر أن المراقب وعدني بتلك المقصورة.

- إن مراقبي السفن قوم غارقون في العمل وكثيراً ما تختلط عليهم الأمور فينسون وعودهم.

ولمّا لم يُجِب أردفت قائلة: أتلك أوّل رحلة لك إلى جنوب إفريقيا؟

- نعم، وإن كنتُ قد أمضيت العامين الماضيَين في إفريقيا الشرقية وسط القبائل المتوحّشة.

وفجأة راودتني بادرة من الشكّ وقلت في نفسي: إذا كان القس المحترم قد قضى سنتين في إفريقيا الشرقية فكيف لم تلوّح الشمس بشرته؟ هذا شيء يثير الشك. أتراه قسّاً حقيقيّاً أم مدّعٍ يمثل دور القسّ؟

وبينما أنا أتدبّر هذه الخواطر رأيت السير أوستاس بيدلر قادماً، وحين حاذى القسّ انحنى على الأرض فالتقط قصاصة ناولها إلى الأب شيستر قائلاً: يبدو أن هذه الورقة سقطت منك.

ثم تابع طريقه دون أن يفطن إلى ما اعترى القسّ من اضطراب وأنه كوّر الورقة بانفعال، فأيّ سرّ كانت تطويه تلك الرقعة من الورق؟ لا شكّ أنه اعتقد أن السير أوستاس استطاع وهو يقدّمها إليه أن يقرأ ما هو مكتوب فيها ولذلك شحب وجهه

واضطرب. ثم التفت القسّ إليّ يقول كي ينفي شكوكي: هذه مسوّدة موعظة كنتُ أكتبها.

وكان واضحاً أنه يكذب وأن كلماته لم تخدعني فاستأذن منّي وانسحب مسرعاً. وبعد أن فرغت من تناول الغداء مضيتُ إلى قاعة الاستقبال فوجدت السيدة بلير تتناول قهوتها وفي رفقتها الكولونيل ريس والسير أوستاس بيدلر وسكرتيره باغيت فانضممتُ إليهم، وكانوا حينئذ يتحدّثون عن إيطاليا وما بها من تماثيل وتحف رائعة، فقال أوستاس بيدلر موجّهاً الحديث إلى سكرتيره: وما رأيك أنت في الإيطاليين يا باغيت؛ فأنت عائد لتوّك من فلورنسا؟

وكان سؤالاً عادياً، ولكن ما إن سمعه باغيت حتى بدا عليه الارتباك وتضرّج وجهه احمراراً وغمغم ببعض كلمات غامضة، ثم نهض على الفور واستأذن منسحباً فقال السير أوستاس ضاحكاً: ما أعجب هذا! كلّما أشرتُ إلى فلورنسا في حديثي مع سكرتيري ارتبك واضطرب، حتى ليخيَّل إليّ أنه لا بدّ أن يكون قد اقترف جريمة قتل في أثناء عطلته التي أمضاها هناك!

فقالت السيدة بلير: أرجو أن لا يغضبك يا سير أوستاس أن أقول إن له سِحنة شرّيرة كرجال العصابات.

فتساءل الكولونيل ريس: هل أمضى في خدمتك وقتاً طويلاً؟

- ثماني سنوات وربما أكثر، ومع ذلك فلكِ أن تطمئنّي يا سيدة بلير؛ فالقاتل يحاول أن يكون لطيفاً دائماً. أتذكرين المجرم الخطير كريبين؟ هو كما يقولون كان من ألطف الناس

وأرقّهم حاشية.

ثم سمعنا قرقعة خلفنا، وحين التفتنا وجدنا أن فنجان القهوة قد وقع من يد القسّ عند سماعه اسم المجرم كريبين يتردّد في حديثنا، فقلتُ لنفسي: تُرى أيكون هو نفسه كريبين متنكّراً في زيّ القسّ؟

فقالت السيدة بلير: أعتقد أن رجال الشرطة قبضوا عليه وهو مسافر على إحدى البواخر، ولكنه استطاع أن يهرب منهم.

ثم تفرّق شملنا حين فرغنا من تناول القهوة، ولكن الكولونيل ريس لحق بي على سطح الباخرة فسألني: لماذا تتهرّبين منّي يا آنسة بيدنغفيلد؟ لقد بحثتُ عنك ليلة أمس دون جدوى.

- لقد أويتُ إلى فراشي مبكّرة؛ فقد كنت متعَبة.

- وماذا عن الليلة؟ أتنوين أن تنامي مبكّرة أيضاً؟

- بل يسعدني أن أسهر معك.

ولست أنكر أنني كنت أشعر بشيء من الميل نحو الكولونيل ريس. وفي ذلك المساء سهرنا معاً، وفي نهاية السهرة استرخينا على كراسي البحر وأخذنا نتسامر، فقال لي في معرض الحديث: أتعرفين يا آنسة بيدنغفيلد أنني أعتقد أنني التقيت بأبيك؟ لقد كان عالماً عظيماً. لقد درست أنا نفسي فيما مضى علم الأجناس، فعندما كنتُ في فرقة دوروني...

ثم أفاض في الحديث عن معلوماته الفنّية، وكان دون شكّ واسع الاطّلاع، ولكنه ارتكب غلطة جسيمة؛ فقد ذكر أن عصر

موستريا كان تالياً لعصر أورنياسيا في حين العكس هو الصحيح، وهي غلطة لا تصدر ممن يعرف بديهيات علم الأجناس.

وعندما أويتُ إلى فراشي دارت بخلدي فكرة طارئة. لماذا أطال وأسهب في الحديث عن علم الأجناس وهو موضوع لا يلائم جلستنا الشاعرية؟ أتُراه كان يريد أن يختبرني؟ أتُراه كان يعتقد أنني امرأة مدّعية وكاذبة أحمل اسماً غير اسمي وأنني لست آن بيدنغفيلد ابنة العالم الشهير فطرَق هذا الموضوع ليتأكّد من حقيقة أمري؟ ولكن لماذا؟ ما الذي يعنيه من أمري؟ ولماذا يرتاب في شأني؟

* * *

الفصل العاشر

نقلاً عن مذكّرات السير أوستاس بيدلر

لقد قمتُ بالكثير من الرحلات البحرية حتى ألفت اهتزاز السفن وارتجاجها، أمّا سكرتيري باغيت فما كاد يضع قدمه في المركب حتى أُصيب بدوار البحر فلزم مقصورته، وأمّا سكرتيري الثاني فلم أرَه مطلقاً، ويبدو أنه هو الآخر أُصيب بالدوار فلم يبرح مقصورته قطّ فأراحني من رؤية سحنته. لقد فُرض عليّ فرضاً، وهكذا كنتُ أقضي وقتي مع السيدة بلير وصاحبها الكولونيل ريس.

وبعد أن غادرنا ماديرا ترك جاي باغيت مقصورته وأقبل يلحّ عليّ أن نشرع في العمل وأن أواصل إملاء مذكّراتي فقلتُ له: وما الذي يدعوني إلى أن أُرهق نفسي بالعمل الآن فلا أستمتع بهذه الرحلة البحرية الطريفة؟

ثم جاءني في اليوم التالي يقول إن المقصورة مختنقة بالحقائب وإننا في حاجة إلى مقصورة أوسع، وأخذ يلحّ ويلحّ في الرجاء فلم أرَ مناصاً من أن أقرّه على رأيه لأتخلّص منه، فقال إن المقصورة رقم ١٧ خالية فكلّفتُه بأن يطلب من الربّان

أن يحجزها لنا.

وفي الصباح التالي أقبل عليّ متجهّم الوجه وروى لي قصّة خرجتُ منها بأنه لم يفُز بالمقصورة رقم ١٧ لأن فتاة تُدْعى الآنسة بيدنغفيلد وقسّاً يُدْعى الأب شيستر زاحماه عليها بتشبّث وعناد، وكان أن ظفرت بها الفتاة. فقلت له: لا أهمية للأمر ما دمتَ قد حصلتَ على مقصورة أخرى.

- ولكنكَ طلبت مني أن أحجز باسمك المقصورة ١٧.

- الأمر يستوي عندي، فكلّ المقاصير سواء.

- ولكن هناك شيء غامض يتعلّق بالمقصورة رقم ١٧. لقد ظفرت بها الآنسة بيدنغفيلد ولكنني رأيت الأب شيستر خارجاً منها هذا الصباح تبدو عليه علامات الاضطراب والحذر كأنما دخل إليها خلسة!

فقلت له غاضباً: لا تنسَ أن شيستر رجل دين وأن الآنسة بيدنغفيلد من أشرف المسافرات وأطهرهن.

ولكي أغيظ باغيت استطردتُ أقول: عليك أن تدعو الآنسة بيدنغفيلد باسمي إلى تناول العشاء غداً على مائدتي؛ فأنا أحبّ أن أرقص معها في الحفلة التنكّرية التي ستقام في المساء، أمّا أنا فسأتولى بنفسي توجيه الدعوة إلى السيدة بلير.

فقال باغيت معترضاً: ولكنني أعرف أن الكولونيل ريس سبقك فدعاها إلى مائدته.

- ما الذي تعرفه عن الكولونيل ريس؟

- يقولون إنه يعمل بالمخابرات، كما أنه من أشهر

الصيّادين في العالم.

فتنهّدت باستخفاف وقلت: ما أعجبَ تصرّفات حكومتنا يا باغيت! يعهدون إلى رجل عادي بوثائق سرّية خطيرة في حين أن لهم على نفس المركب أحد رجال مخابراتهم.

فمال إلى أذني وقال هامساً: هناك أشياء غريبة شاذّة تجري يا سير أوستاس، فها أنا ذا قُبيل سفري مباشرة أُصاب بنزلة كبدية، ولكن الحقيقة أن الأمر لم يكن كذلك.

- ماذا تعني يا باغيت؟

- أعني أن أحدهم وضع لي سُمّاً لأتخلّف عن الرحلة.

- هل تحدّثت في هذا إلى زميلك رايبورن السكرتير الثاني؟

- نعم، وهو يقرّني على رأيي.

- بالمناسبة، أين هو؟ أنا لم أرَه قطّ.

- إنه يلازم مقصورته مدّعياً أنه مريض، ولكنني واثق أن هذا الادّعاء خُدعة منه حتى يتسنّى له أن يسهر على حمايتك، فقد يحاول بعضهم أن يغتالك.

فنظرت إليه بدهشة فقال باقتضاب: نعم، أنت مهدَّد بخطر الاغتيال يا سير أوستاس.

ثم أولاني ظهره وانصرف دون أن يضيف كلمة أخرى.

* * *

الفصل الحادي عشر

كانت سهرة رائعة ممتعة، ولم أجد في مخازن الباخرة حُلّة تنكّرية تلائم جسمي السمين إلا جلد الدبّ فارتديته على كُره مني، ولكنني ظفرت بالجائزة الأولى عن أجمل الثياب التنكّرية للرجال، وانتقت الآنسة بيدنغفيلد ثوب غجرية مطرّزاً بالشرائط ذات الألوان الزاهية، أمّا السيدة بلير والكولونيل ريس فظلا في ثيابهما العادية ورفضا أن يتنكّرا. وقد رقصتُ أكثر من مرة مع الآنسة بيدنغفيلد والسيدة بلير، ثم جلسنا نتناول العشاء وأُغرقت المائدة بألوان الطعام والشراب، وأفرط الكولونيل ريس في الشراب فانطلق لسانه وأخذ يداعبني قائلاً: لماذا لا تدوّن مذكّراتك يا سير أوستاس؟ لو أنك فعلتَ لعرف الناس ما يجهلون من مغامراتك.

فقلت: لو أنني كتبتُ مذكّراتي لاقتصرت فيها على أن أدوّن فضائح غيري.

وبعينين ساذجتين قالت الآنسة بيدنغفيلد: لا شكّ أن حياتك مليئة بالمغامرات الطريفة يا كولونيل ريس.

فانطلق لسانه يروي لها مغامراته في صيد الأسود في

روديسيا، وكان أسلوبه في سرد قصصه شائقاً فتن الحاضرين جميعاً وخصوصاً النساء، فتساءلت السيدة بلير قائلة: ولكن أليس في روديسيا سوى الأسود؟

فأسرعت أجيب: بل فيها ماس، شركة دي بيرس الشهيرة.

فهتفت السيدة بلير والآنسة بيدنغفيلد في صوت واحد قائلتَين: الماس؟ آه، ما أجمل الماس!

ثم بدأت الأسئلة تدور حول الماس، ولكن الأسئلة لم تكن توجّه إليّ وإنما كانت تنهال على الكولونيل ريس؛ فقد أصبح بهجة السهرة ومحورها.

- أنت طبعاً زُرت كمبرلي يا كولونيل، أليس كذلك؟

- أنت طبعاً رأيتَ مناجم الماس، أليس كذلك؟

- هل حقيقة أنهم يحبسون العمّال الإفريقيين ولا يسمحون لهم بزيارة أسرَهم خشية أن يخبئوا شيئاً من الماس عند أهليهم؟

وأجاب الكولونيل ريس على هذه الأسئلة باستفاضة تدلّ على إحاطته بالموضوع؛ فقد كنتُ أنا أيضاً خبيراً بمثل هذه المسائل إذ سبق لي أن زرت كمبرلي ورأيتُ مناجم الماس أكثر من مرّة وعرفت الاحتياطات التي يتخذها دي بيرس ليتوقّى السرقات. فقالت السيدة بلير: إذن فمن المستحيل أن تُتاح لأحد الفرصة لسرقة شيء من الماس، أليس كذلك؟

فأجابها الكولونيل قائلاً: لا شيء مستحيل في الدنيا يا

سيدة بلير؛ فالسرقات تقع من حين لآخر كحادث الخفير الذي أحدث في ساقه جُرحاً خبّأ فيه فصّاً من الماس.

- والسرقات الكبيرة، ألا تقع أبداً؟

- لقد وقعت سرقة كبيرة في السنوات الأخيرة، ولا شكّ أنك تذكر تلك الحادثة يا سير أوستاس؛ فقد كنتَ موجوداً في جنوب إفريقيا عند وقوعه.

فأومأتُ برأسي إيجاباً، فقالت السيدة بلير بشغف: أرجو أن تروي لنا القصّة، أرجوك.

فابتسم ريس وشرع يحكي تفصيلات تلك السرقة قائلاً: حدث قُبيل الحرب أن تناثرت إشاعات قوية عن وجود الماس في أدغال غينيا البريطانية، ولكن المنقّبين لم يكتشفوا موقع المنجم بعد، ثم جاء إلى كمبرلي شابّان مغامران هما جون إيرديسلي وصديقه لوكاس فادّعيا أنهما وُفّقا إلى اكتشاف طبقات الماس في غينيا. وكانا قد أحضرا معهما مجموعة من قِطع الماس الخام كان بعضها ذا حجم كبير، وطلبا فحصها وتقدير قيمتها ونوعها، وفي نفس الوقت وقعت سرقة كبيرة في شركة دي بيرس رغم الاحتياطات الدقيقة. فعند تصدير الماس إلى إنكلترا يوضع في لفافة مختومة تودَع في خزانة كبيرة لها مفتاحان يحتفظ بأحدهما واحد من كبار الموظّفين ويحتفظ زميل له بالمفتاح الثاني، أمّا الشفرة الخاصّة بفتح الخزانة فيعرفها موظف ثالث وبذلك لا تُفتَح الخزانة إلاّ في حضور الثلاثة، ثم تُسلّم اللفافة إلى المصرف لتصديرها إلى إنكلترا.

وصمت الكولونيل قليلاً ليلتقط أنفاسه ثم استطرد يتمّ

روايته قائلاً: وحدث حينئذ أن ارتاب المصرف في سلامة أختام اللفافة التي سُلِّمت إليه، وأراد فتحها فإذا هي خالية من الماس وبدلاً منه كانت هناك حفنة من السكّر. ولست أدري كيف أشار إصبع الاتهام إلى جون إيرديسلي! ولكن يبدو أن السبب في ذلك هو أن سجلّه في إنكلترا كان شائناً مخزياً، وأنتم تعرفون طبعاً أن جون ابن السيد لورنس إيرديسلي المليونير المعروف وصاحب مناجم الذهب، ولذلك كان أبوه يسرع دائماً إلى نجدته ودفع ديونه وإنقاذه من الورطات التي يتردّى فيها.

ثم تابع ريس الحديث قائلاً: وقُبض على جون إيرديسلي وتبيّن أن مناجم الماس في أمريكا الجنوبية قصّة ملفّقة، كما وُجد في حوزة جون بعض قِطع من ماس دي بيرس، ولكن القضية حُفظت ولم تُقدّم إلى المَحاكِم؛ فقد تنازل دي بيرس عن شكواه بعد أن نقده السيد لورنس نحو ربع مليون جنيه قيمة الماس الذي سرقه ابنه. وكان هذا الحادث صدمة للأب المسكين هدمت صحّته. وحدث بعد ذلك أن تطوّع جون في الحرب ومات كالأبطال فمحا العار الذي دنّس اسمه، ومنذ شهر مات الأب السيد لورنس وترك ثروته الضخمة لأقرب وريث له، وريث لا يعرفه ولم يقابله في حياته!

وسكت الكولونيل ريس هنيهة، ويبدو أن شيئاً استرعى بصر الآنسة بيدنغفيلد؛ فقد أدارت رأسها ناحية الباب وخرجت من صدرها شهقة خفيفة، فاستدرتُ ونظرت إلى حيث كانت تنظر، وهناك في فجوة الباب رأيتُ سكرتيري الثاني رايبورن واقفاً يرهف السمع إلى حديث الكولونيل ريس وتبدو في وجهه سمات الانفعال الشديد، فلمّا رآنا ننظر إليه استدار وانصرف،

ثم سألتني الآنسة بيدنغفيلد: أتعرف ذلك الرجل؟

فأجبت: هذا رايبورن سكرتيري، وكان مصاباً بدوار البحر فلم يبرح مقصورته إلا اليوم.

- ومتى التحق بالعمل عندك؟

- منذ وقت قصير، قُبيل قيامي بهذه الرحلة.

ثم تحوّلتُ إلى الكولونيل ريس أسأله: وهل تعرف ذلك الوريث الذي آلت إليه ثروة السيد إيرديسلي الطائلة؟

فأجاب ببساطة: طبعاً أعرفه، لأن ذلك الوريث هو أنا.

* * *

الفصل الثاني عشر

آن بيدنغفيلد تتابع سرد قصّتها

حتى تلك اللحظة كنتُ أحاول وحدي أن أحلّ اللغز، ولكنني قرّرتُ أن أتّخذ لي عوناً أفضي إليه بالأمر وأبادله الرأي، وكان الكولونيل ريس أوّل من خطر بذهني، ولكنني انصرفت عنه؛ فهو ذو شخصية قوية مسيطرة ولو أنني كاشفتُه لانتزع الأمر من يدي وتولاّه بنفسه. ثم قفز اسم السيدة بلير في ذهني؛ فهي امرأة ذكية لطيفة المعشر، كما أنها توليني مودّة وعطفاً.

ولم أتردّد لحظة واحدة فضغطتُ الجرس أستدعي الوصيفة الليلية لأستفسر منها عن رقم المقصورة التي تنزل فيها السيدة بلير، وبعد فترة قُرع الباب وجاء وصيف يلبّي ندائي معتذراً عن تأخُّره قائلاً بأنه وحده القائم بالعمل والمكلّف بالإشراف على جميع المقاصير، فسألته عرَضاً: ولكن أين الوصيفة الليلة؟

فأجاب: الوصيفات جميعاً يفرغن من العمل في تمام العاشرة مساء.

فقلت له باستغراب: ولكن كيف هذا وفي الليلة الماضية

جاءت الوصيفة إلى غرفتي في الواحدة بعد منتصف الليل؟

فهزّ رأسه بدهشة وقال: هذا عجيب! الوصيفات لا يعملن أبداً بعد العاشرة.

ثم انصرف بعد أن ذكر لي أن مقصورة السيدة بلير هي رقم ١٧، وتركني في حيرة أسائل نفسي. تُرى ما سرّ تلك الوصيفة التي جاءت في جوف الليل بحثاً عن الرجل الجريح؟ أم لعلها كانت رجلاً متنكّراً في زيّ امرأة!

ثم مضيتُ إلى مقصورة السيدة بلير فاستقبلتني بدهشة بقولها: ما الذي جاء بك في مثل هذه الساعة؟

- لقد جئت أروي لك قصّة حياتي، هذا إذا لم يضجرك أن تستمعي إليّ.

ثم استويت على الأريكة ومضيت أُفرغ إليها ما في صدري، فلمّا فرغت تأمّلتني برهة ثم قالت: يا لك من فتاة عجيبة؛ تقتحمين الدنيا وتطوفين بالبلاد ولا مال لديك! ما عساك تفعلين إن وجدت نفسك يوماً خاوية الوفاض؟

فأجبت ضاحكة: أبحث عن أيّ عمل مؤقّت ثم أواصل مغامراتي، وبعد أن ربحت أمس جائزة الرقص أصبحت لديّ ثروة طائلة، فمعي الآن أربعون جنيهاً.

فقالت السيدة بلير ساخرة: نعم، إنها ثروة طائلة حقاً!

- أنا أحبّ المغامرة يا سيدة بلير.

- أرجوك، يكفي أن تناديني منذ الآن باسمي الأوّل،

سوزان. والآن فلنتدارس معاً ما سمعتُ منك، لقد قلت لي إنك تعرّفت بسكرتير السير أوستاس على أنه الرجل الجريح الذي اقتحم غرفتك في جوف الليل، لا أعني باغيت ذا الوجه الشرّير بل أعني الآخر المدعو رايبورن.

فأومأت برأسي مؤمّنة فاستطردت قائلة: ولا شكّ أيضاً أن الوصيفة الليلية كانت وصيفة مزيّفة، فهل لك أن تصفيها لي؟

فأجبت: الحق أنني لم أفطن إليها تماماً، ولكنّ وجهها بدا مألوفاً لي.

- ألا يمكن أن تكون رجلاً متنكّراً على هيئة امرأة؟

- هذا محتمل؛ فقد كانت طويلة القامة جداً.

- هذا لا ينطبق على السير أوستاس ولا على سكرتيره باغيت.

ثم تناولت ورقة وأخذت ترسم عليها وجهاً ثم بسطته إليّ قائلة: تأمّلي هذه الصورة، أليست هذه هي الوصيفة الليلية؟

فهتفتُ بدهشة: أجل، أجل؛ لقد كان لها وجه القسّ المحترم شيستر. ما أذكاك يا سوزان! أجل، تلك الوصيفة هي القسّ شيستر متنكّراً!

- لقد كنت أشكّ في ذلك المخلوق شيستر؛ فمن عينيه يطلّ شيطان مريد. أتذكرين كيف اضطرب وأفلتَ من يده قدح القهوة عندما أشرنا في حديثنا أمس إلى المجرم الخطير كريبين؟

- كما حاول في عناد أن يظفر بالمقصورة ١٧.

- تماماً، فما سرّ المقصورة ١٧؟ أنا أعتقد أن تلك المقصورة كانت مكاناً مضروباً للقاء سرّيّ، فلمّا ذهب رايبورن إلى الموعد المضروب طعنه شيستر، وكان متنكّراً في زيّ الوصيفات حتى لا يثير شكوك السكرتير إذا التقى به. ولكن مع مَن كان الموعد؟ ربما كان مع شيستر نفسه أو مع باغيت مثلاً.

فقلتُ معترضة: لا أظنّ؛ فهما كسكرتيرين للسير أوستاس يستطيعان أن يتقابلا بغير حَرج عشرات المرّات دون حاجة إلى موعد سرّيّ في جوف الليل.

ثم ران علينا الصمت برهة، وفجأة قالت السيدة بلير: ألا يجوز أن يكون هناك شيء ما مخبّأ في المقصورة؟

- هذا محتمَل جداً؛ فقد اقتحم شخصٌ مجهول غرفتي ليلة أمس وبحث في متاعي.

- ألا يُحتمل أنه كان يسعى وراء رقعة الورق التي سقطت من الطبيب المزعوم؟

- ربما، ولكن الأمر يبدو سخيفاً؛ فهي لا تتضمّن إلا تاريخ يوم معيّن وقد مضى ذلك اليوم.

- أيمكنك أن تطلعيني على تلك القصاصة؟

وكانت الرقعة في جيبي فقدّمتُها إليها فمضت تتأمّلها باهتمام وقالت: ما معنى وجود هذه النقطة بعد الرقم ١٧؟

وفجأة نهضت ودنت من المصباح وعرّضت الورقة لضوئه

ثم قالت: آن، ليست هذه نقطة بل هي عيب أو خدش في نسيج الورقة.

وكانت على حقّ في ذلك، ثم قالت: إذن يجب أن تُقرَأ هذه الأرقام على صورة أخرى، أي ١٧ بعدها مسافة، ثم ٢٢ ومسافة ثم رقم ١. ألا تدركين المعنى الآن؟ الرقم ١ يدلّ على الوقت، أي الواحدة بعد منتصف الليل، أي الآن تقريباً، ورقم ١٧ هو رقم المقصورة، أمّا التاريخ فهو يوم ٢٢.

فقلت لها: ألا يجوز أن تكون هناك خطأ مطبعي في رقم المقصورة؟ لماذا لا يكون الرقم المعني هو ١٧ وليس ١٧؟

فهتفت سوزان قائلة: المقصورة ١٧؟ يا إلهي! هذه مقصورتي، إنها هذه المقصورة!

فسألتها: ولكن يا سوزان هل المقصورة ١٧ هي المقصورة الأصلية التي أقمتِ فيها عند بداية الرحلة؟

- لا، فقد استُبدِلت بهذه المقصورة.

- إذن لمن كانت محجوزة أصلاً؟

- لقد أخبرني مراقب الباخرة أنها كانت محجوزة لامرأة اسمها السيدة غراي، وهو اسم تنكّري مستعار للراقصة الروسية الشهيرة السيدة نادينا التي أحرزت نجاحاً منقطع النظير في باريس في أثناء الحرب، وهي لم تظهر قطّ على مسارح لندن. وقد حدّثني الكولونيل ريس عنها فقال: لقد كانت عضواً في منظمة إجرامية سرّية تقوم بأعمال الجاسوسية والسرقات والاختلاس والتزوير يرأسها رجل غامض يقال إنه إنكليزي الجنسية معروف

باسم الكولونيل، وقد عجزت الشرطة عن اكتشاف شخصيّته.

وصمتت السيدة بلير برهة ثم استرسلت قائلة: أجل، نادينا هي بطلتنا؛ فهي المرأة التي يمكن أن تندمج في مثل هذه الألغاز. لا بدّ أنها كانت على موعد يوم ٢٢ في هذه المقصورة، أي المقصورة رقم ١٧، ولكن لماذا تخلّفت عن ركوب الباخرة بعد أن حجزت لنفسها مكاناً؟

فأجبت: ربما ماتت. أنا أظن أن نادينا هي المرأة التي قُتلت في فيلاّ الطاحونة في مارلو.

وعندئذ تذكّرت لفافة الأفلام التي عثرت عليها في الفيلاّ في قاع الخزانة التي تحت النافذة، وفي نفس اللحظة تذكّرتُ أيضاً لفافة الأفلام التي أُلقيت من أنبوبة تكييف الهواء على صدر السيدة بلير وهي راقدة في فراشها في جوف الليل، فهتفت بها: أتذكرين لفافة الأفلام؟ أنت تعتقدين أنها اللفافة التي طارت من يدك عندما اختلّ توازن الباخرة؟ ولكن ما يدريك؟ فلعلّها لفافة أخرى مختلفة.

فأسرعت السيدة بلير إلى حقيبتها وجاءت باللفافة، وما إن فضضناها حتى تساقطت منها حفنة من الماس!

* * *

الفصل الثالث عشر

حملقتُ إلى كومة الماس في ذهول وغمغمت قائلة: سوزان، هل أنت واثقة من أن هذه القِطَع ماس حقيقي؟!

فأجابت: أنا خبيرة بالماس يا عزيزتي، ولكن لا بدّ أن لهذه الماسات قصّة وتاريخاً. لعلها القصّة التي سمعناها من الكولونيل ريس، ولستُ أشكّ أنه سردها علينا لهدف معيّن.

- أتعنين أنه أراد أن يرى أثر قصّته على السير أوستاس بيدلر؟

- هذا هو ما خطر لي.

ثم استطردتُ: ولكن مَن يكون الكولونيل ريس؟

قالت سوزان: المعروف عنه أنه من كبار صيّادي الوحوش، وهو كما ذكر لنا يمتّ بصلة القرابة إلى السير إيرديسلي، وقد أصبح وريثه الوحيد كما سمعنا منه، وهو كما يقال يعمل في المخابرات. حسناً، إن زوجي كلارنس يعمل في وزارة الخارجية، فيمكنني أن أبعث إليه ببرقية أستفسر منه عن الكولونيل ريس.

- أنا أعتقد أنه تعمّد أن يروي لنا قصّة الماس الذي سُرق

من شركة دس بيرس، فلماذا فعل ذلك؟ أليس من الجائز أن هذه الماسات جزء من الماس المسروق؟

ران الصمت علينا برهة ثم عُدت أقول: لقد ذكر لنا الكولونيل ريس أن جون إيرديسلي، أحد اللصَّين، مات في الحرب، وبودّي أن أعرف مصير اللصّ الثاني، أعني شريكه لوكاس.

فقالت سوزان: أمّا أنا فالذي يهمّني هو هذه الماسات؛ فهي محور الحركة والجميع يلهثون وراءها، ولا يداخلني شكّ في أن الرجل ذا البدلة البنية إنما قتل نادينا ليستولي على الماسات.

فقلتُ بانفعال: لا، هو لم يقتلها.

- إذن فمن الذي قتلها؟

- لا أدري، ولكن الرجل ذا البدلة البنية بريء.

- ولكنه كما ذكرت لي دخل البيت بعدها بدقائق، وحين خرج كان باديَ الارتباك والاضطراب.

- لأنه وجدها مقتولة فعلاً.

- إذن لا شكّ أن القاتل كان لا يزال موجوداً في البيت، إلا إذا كان قد غادره من باب خلفي.

ثم تساءلت سوزان: ولكن مَن يكون ذو البدلة البنية؟

- ربما كان هو الطبيب المزيّف الذي فحص جثة الرجل الذي صعقه التيار الكهربائي في النفق، ولا شك أنه استطاع أن يغيّر تنكّره وتبع الحسناء الأجنبية إلى فيلاّ الطاحونة حيث كانت على موعد مع كارتون قتيل النفق. ويبدو أن كارتون يخاف هذا

الرجل خوفاً شديداً، فما إن رآه على رصيف المحطة حتى استبدّ به الفزع فاختلّ توازنه وسقط فوق القضبان المكهربة، وعندئذ ادّعى كذباً أنه طبيب وتظاهر بفحصه واغتنم الفرصة وسرق من جيبه قصاصة الورق، وفي غمرة إسراعه إلى الفرار وقعت منه القصاصة، ولكن ما الذي حدث بعد ذلك؟

واستطردت سوزان محاولة أن تستنتج تسلسل الوقائع: أعتقد أنه اتصل بعد ذلك بالسير أوستاس بيدلر وأقنعه بأن يتّخذه سكرتيراً له، وبذلك يتسنى له الفرار ومغادرة إنكلترا بطريقة آمنة، ولكن كيف استطاع أن يقنع السير أوستاس؟ تُرى هل يعرف من أسراره ما يخضعه به لسلطانه؟

- وما يدرينا أن باغيت هو الواقع تحت سيطرته وليس السير أوستاس؟

فقالت سوزان: واستطراداً في استنتاجاتي يمكن أن أقول إن رايبورن هو ذو البدلة البنية، وقبل أن تقع منه القصاصة استطاع أن يلقي عليها نظرة خاطفة فانخدع في معناها كما انخدعتِ أنتِ من قبل وظنّ أن المقصورة رقم ١٧ هي المقصورة المدوّنة على رقعة الورق، فعهد إلى باغيت بأن يحجزها لنفسه، وفي الليلة المعهودة، أي في ليلة ٢٢، مضى إلى المقصورة في الليل، وفي الطريق إليها اعترضه شخص مجهول فطعنه في كتفه.

فقلت أتساءل: ومَن يكون هذا الشخص المجهول؟

فردّت سوزان قائلة: القسّ شيستر طبعاً؛ فالأمر واضح. هيا يا آن، ابعثي ببرقية إلى اللورد ناسبي صاحب صحيفة الديلي بادجيت وأخطريه أنكِ عثرت على ذي البدلة البنية.

فاعترضت بقولي: ولكنكِ غفلت عن بعض الأشياء.

- كيف هذا؟ أوصاف ذي البدلة البنية تنطبق على رايبورن، نفس الطول ونفس القامة. بالمناسبة، لقد وصفت رأس الطبيب لاسكتلنديارد، فما الذي قلته لهم؟

- قلتُ لهم إن رأسه مستطيل.

وكنتُ في هذا كاذبة على سوزان؛ فقد ذكرتُ لهم أن رأسه عريض. ويبدو أن ذاكرة سوزان كانت قوية؛ فقد اعترضت بقولها: أنا أذكر أنك وصفت لي رأسه بأنه عريض.

فصمّمت على الأكذوبة وقلت: بل قلت إنه مستطيل.

فتأمّلتني سوزان برهة ثم قالت: أنت لا تحسنين الكذب يا عزيزتي الحسناء، فهل لك أن تفضي إليّ بالحقيقة؟

ولُذت بالصمت برهة ثم قلتُ: لم أكَد أرى رايبورن يقتحم مقصورتي في جوف الليل ولم أكَد أفزع من تضميد جرحه حتى شعرت أنني أحبّه. أجل، يبدو أنني أحبه يا سوزان.

- ولهذا تكذبين في وصف ذي البدلة البنية حتى تبعدي الشبهات عن رايبورن.

- أجل، أنا مفتونة به، ومن أجله لن أتردّد في الإقدام على أيّ شيء.

- ولكن هذا الرجل قاتل يا آن، فكيف تحبّينه؟

- بل هو بريء.

* * *

الفصل الرابع عشر

في صباح اليوم التالي التقيتُ بالكولونيل ريس على سطح المركب فتبادلنا التحية وقلت له: كانت طريفة جداً تلك القصّة التي رويتَها لنا أمس، قصّة الماس المسروق. بالمناسبة، ما الذي حدث للشريك الثاني؟ لقد قلتَ إن جون إيرديسلي مات في ميدان القتال، فكيف كان مصير لوكاس؟

- لقد تطوّع في الحرب، وذُكر اسمه بين المفقودين.

- إذن فمصير لوكاس ما زال مجهولاً، ولعله لا زال على قيد الحياة.

ثم اغتنمتُ فرصة اختليت فيها بالوصيف الليلي وأجزلت له العطاء، فقال لي إنه في أثناء رحلة الباخرة من كيب تاون إلى إنكلترا أعطاه أحد المسافرين فيلماً وطلب إليه أن يلقيه إلى داخل المقصورة رقم ١٧ من خلال أنبوبة التكييف، على أن يكون ذلك في الساعة الواحدة بعد منتصف ليلة ٢٢ كانون الثاني (يناير)، وقال له ذلك المسافر الغامض إن إحدى السيدات هي التي ستكون شاغلة المقصورة في تلك الليلة وإن الفكرة في تلك العملية هي مجرّد رهان ومداعبة. كما ذكر لي الوصيف أن

المسافر الذي عهد إليه بتلك المهمّة كان يُدْعى السيد كارتون، وأنه لم ينبئه باسم السيدة شاغلة المقصورة. وعندما وصف لي كارتون أدركتُ على الفور أنه الرجل الذي صعقته القضبان المكهرَبة.

* * *

مرّت الأيام القليلة الباقية على نهاية الرحلة في هدوء، وذات مساء كنا جلوساً على سطح المركب نتبادل الحديث فأشار السير أوستاس بيدلر إلى فوضى مواعيد القطارات في إيطاليا، وعندئذ حدث نفس الشيء الموعود، وهو أن اضطرب سكرتيره باغيت اضطراباً شديداً كما هو شأنه دائماً كلّما أشار أحد إلى إيطاليا وفلورنسا. وحين نهض السير أوستاس مع السيدة بلير اغتنمتُ الفرصة وقلت لباغيت: كم أتوق إلى زيارة إيطاليا! إنها بلاد جميلة حقاً. تُرى هل استمتعتَ بعطلتك التي قضيتها في فلورنسا يا سيد باغيت؟

- طبعاً يا آنسة بيدنغفيلد، والآن هل تسمحين لي بالانسحاب لأحرّر بعض الرسائل؟

فتشبّثتُ بذراعه وأقعدتُه وأنا أقول: لن تستطيع أن تهرب منّي، لا شك أن ضميرك يؤنّبك بشأن رحلة فلورنسا، فما الذي فعلتَه في تلك المدينة؟ هل وقعتَ في مشكلة حبّ؟ هيا حدّثني.

فجلس مستسلماً على كُره منه وهو يقول: ما الذي تريدين معرفته؟

- هل أعجبتك فلورنسا؟ هل شاهدت تمثال العذراء ولوحات رافاييل؟

- إنها رائعة، تُحفة فنّية لا مثيل لها.

- وهل تناولت السمك في المطاعم المشيّدة على ضفاف نهر أرنو؟ إنهم يخرجونه من النهر حيّاً أمام عينيك ويشوونه لك.

- طبعاً لقد تناولت العشاء هناك أكثر من مرّة.

- وهل تنزّهت في نهر دومو في تلك القوارب الملوّنة الجميلة؟

- مرّتين على الأقل.

وهكذا انزلق باغيت بسهولة إلى الفخّ الذي نصبتُه له، فتلك المعالم التي أشرتُ إليها غير موجودة في فلورنسا، ولكنه أكّد رداً على أسئلتي أنه زارها ورآها، وهذا دليل على أنه لم يذهب قطّ إلى فلورنسا. فأين كان إذن خلال عطلته؟ أين كان في الفترة التي جرى فيها هذا اللغز؟ طبعاً كان في إنكلترا.

ثم أقدمتُ على خطوة أخرى جريئة فقلت له: يُخيّل إليّ أنني رأيتك من قبل، ولكن لا بدّ أنني مخطئة لأنك كنت في فلورنسا في ذلك الوقت.

فرماني بنظرة مضطربة وقال: ولكن أين تعتقدين أنكِ رأيتني؟

- في مارلو، أنت تعرف مارلو طبعاً؛ فالسير أوستاس

يملك هناك بيتاً، فيلاّ الطاحونة.

فانتفض باغيت واقفاً وبادر إلى الانصراف.

* * *

في تلك الليلة مضيتُ إلى مقصورة السيدة بلير وأفضيت إليها بما كان بيني وبين باغيت ثم قلت لها: أجل، كان باغيت في إنكلترا في أثناء مقتل الأجنبية، فهل تعتقدين أنه هو القاتل؟

فردّت سوزان بقولها: أنا مقتنعة بشيء واحد، وهو أن القاتل رجل وسيم ليست له سحنة باغيت البشعة الذميمة.

وصمتت برهة ثم استطردت قائلة: الآن عرفنا حقيقة لا شكّ فيها، وهي أن باغيت كان في إنكلترا في أثناء وقوع الجريمة.

- تماماً، وعلينا أن نراقب حركاته وسكناته.

- هو وغيره ممن نشتبه فيهم طبعاً. بالمناسبة، أنت لا تملكين من المال إلا النزر اليسير، وفي أثناء مراقبتكِ للمشتبه فيهم ستُضطرّين إلى النزول في أفخم الفنادق، وبما أننا شركاء في هذا اللغز فأنفقي ما تشائين ولا تتردّدي؛ فسأضع مالي رهن إشارتك. ألسنا شركاء؟

وبان التردّد على وجهي فاستطردت سوزان: سنبدأ أوّلاً بأن تنزلي معي في فندق نيلسون على حسابي حتى نلتقي بسهوله ونناقش خططنا.

فاضطررتُ إلى الإذعان فمضت تقول: السير أوستاس سينزل في فندق نيلسون في كيب تاون، ثم يذهب بعد ذلك إلى

روديسيا، أمّا القسّ شيستر فسيذهب إلى دوربان، وقد عرض عليّ السير أوستاس أن أصحبه في سيارته الخاصّة.

- حسناً، فالكولونيل ريس مسافر إلى روديسيا أيضاً، ولذلك سأُقنع السير أوستاس بأن يدعوه إلى ركوب سيارته، وبذلك يتسنّى لي مراقبة المشبوهين الثلاثة.

ثم انصرفتُ إلى مقصورتي، ولكن الأرقَ استبدّ بي فصعدت أتمشّى على سطح الباخرة، ثم وقفت عند السياج أتأمّل الليل الساجي وهدوء البحر، ولكن فجأة جاءني نذير خفيّ بخطر يقترب، فاستدرت سريعاً فلمحت شبحاً ينقضّ عليّ ويطبق بيديه على عنقي، فأطلقتُ صرخة مدوّية وأخذت أناضله بغير جدوى، فأخذ يدفعني إلى ناحية السياج ليقذف بي من فوقه إلى أفواه الحيتان حتى بدأت أضعف وأتخاذل. وفجأة سمعتُ وقع أقدام خفيفة سريعة ورأيت شبحاً آخر مقبلاً علينا، ثم سدّد القادم إلى الشبح الذي كان يحاول أن يخنقني لكمة عنيفة طرحته أرضاً، ثم تلقّاني بين ذراعيه وهو يقول بصوت يفيض قلقاً وانزعاجاً: هل أنت بخير؟ هل أصابك سوء؟

ونظرتُ إليه فعرفته على الفور؛ فقد كان الرجل الذي أحببتُه، رايبورن سكرتير السير أوستاس. وفي اللحظة التي كان رايبورن يطمئنّ فيها عليّ كان عدوّي الخفي قد نهض واقفاً وانطلق هارباً، فلم يتردّد رايبورن لحظة واحدة وإنما طار في أعقابه يطارده. ثم رجع إليّ رايبورن بعد لحظات وهو يقول: لقد وجدته مكوّماً أمام باب حجرته ويبدو أنه أغمي عليه من أثر لكمتي.

- ولكن من هو؟ هل عرفتَه؟

- سنرى الآن، هيا بنا.

ثم أخذ بذراعي إلى حيث كان الرجل مكوّماً على الأرض، فأشعل عوداً من الثقاب وشهق دهشة وذهولاً؛ فقد كان الرجل هو جاي باغيت سكرتير السير أوستاس، فالتفت إليّ رايبورن قائلاً: أنت لم تدهشي حين عرفت أن مهاجمك هو باغيت، فهل تبيّنت وجهه حين انقضّ عليك؟

- لا؛ فقد كان الظلام دامساً، ولكنني كنتُ أتوقّع الأمر من قبل.

فنظر إليّ باستغراب وقال: هذا عجيب! تُرى ما مدى ما تعرفين؟

- أنا أعرف أشياء كثيرة يا سيد رايبورن، أم لعله ينبغي أن أقول يا سيد لوكاس؟

فأمسك ذراعي بعنف آلمني وقال: من أين جئت بهذا الاسم؟

- أليس هذا هو اسمك؟ أم لعلك تفضّل أن أناديك بالرجل ذي البدلة البنية؟

وكانت المفاجأة شديدة الوقع عليه، فخلّي عن ذراعي وارتدّ إلى الخلف خطوة أو خطوتين ثم قال: مَن تكونين؟ أأنت فتاة من البشر أم ساحرة من الجنّ؟!

- بل أنا صديقة مخلصة أنقذتك من الموت يوماً، وما زلتُ

على استعداد لأن أنقذك.

فاكفهرّ وجهه وردّ بخشونة وصلَف قائلاً: لا أريد مساعدة من أحد، لا أريد أن تكون بيني وبين أية امرأة في هذه الدنيا رابطة من أيّ نوع كان.

واستثارت كلماته غضبي فقلت أتوعّده: ألا تعلم أنك في قبضة يدي وأنني بكلمة واحدة أتفوّه بها أُلقي بك في غياهب السجون؟

فضحك بمرارة وقال: بل أنتِ في قبضة يدي؛ فأنا أستطيع أن أقتلك الآن.

- أنا أعلم أنك لا تريد أن تتورّط في جريمة قتل أخرى.

- جريمة قتل أخرى؟ ماذا تعنين؟!

وبدت الدهشة في سمات وجهه فقلت مستطردة: أنسيتَ قتيلة فيلاّ الطاحونة؟

فارتسمت على محيّاه أمارات وحشية وغمغم قائلاً: تلك المرأة. كم تمنّيتُ أن أقتلها حقاً!

ثم ظهرت على وجهه أمارات صارخة من الحقد والكراهية، ولكنه تماسك واستردّ هدوءه ثم قال: طاب مساؤك يا آنسة بيدنغفيلد، وداعاً.

- بل إلى اللقاء يا سيد لوكاس.

فأجاب بخشونة: وداعاً، فلن نلتقي أبداً.

- بل سوف نلتقي، لقد ربط القدَر مصيري بمصيرك.

ثم أولاني ظهره وابتعد عني يدقّ الأرض ساخطاً في خطوات حانقة.

* * *

الفصل الخامس عشر

نقلاً عن مذكّرات السير أوستاس بيدلر

دخل عليّ سكرتيري باغيت بعين متورّمة وبدأ قصّته بأن روى لي أنه لمح رجلاً يتصرّف بطريقة تثير الريبة، ثم قال: لقد كان الرجل يمشي في حذر وتلصّص، وكان ذلك في منتصف الليل.

- وما الذي أخرجكَ أنت من فراشك في مثل تلك الساعة؟

- كنتُ منهمكاً في تحرير بعض الرسائل الخاصّة بك، وقبل أن آوي إلى فراشي رأيت أن ألقي بنظرة لأطمئنّ على سلامتك، فرأيت الرجل قادماً من ناحية حجرتك فاستربت فيه بسبب مشيته الحذرة المتلصّصة، ثم انحرف إلى باب الجلوس ونفذ منه فلم أتردّد في اقتفاء أثره، وقد تبيّنت وجهه على الضوء الخافت. لقد كان رايبورن وما في ذلك من شك.

فقلت بدهشة: رايبورن؟!

- أنا متأكّد من هذا، ولا شكّ أنه كان على موعد سِرّي

مع الكولونيل ريس.

- موعد في منتصف الليل؟

- ولكنه موعد سِرّي ليتلقّى الأوامر. أجل يا سير أوستاس، هناك شيء غامض يجري في الخفاء وإلاّ فلماذا هاجمني رايبورن؟ أنا واثق من هذا، والدليل على ذلك أن رايبورن اختفى بمجرّد نزولنا إلى البرّ.

وكان على حقّ في ذلك؛ فنحن لم نرَ وجهه منذ هبطنا إلى البرّ، وهكذا أثارتني قصّة باغيت وملأتني غضباً، فهذا هو سكرتيري باغيت متورّم العينين في حين أن سكرتيري الثاني رايبورن قد اختفى وتوارى كأنما انشقّت الأرض وابتلعته. ثم حدث بعد ذلك شيء خطير.

* * *

لقد ذهبتُ إلى مقابلة رئيس الوزراء لأسلّمه اللفافة التي عهد إليّ بها ميلاري والتي تضمّ مجموعة من الوثائق الخطيرة. وقد كان الختم سليماً لم يمسّ، ولكننا حين فضضنا اللفافة وجدناها لا تضمّ إلا مجموعة من الأوراق البيضاء، فلعنتُ نفسي ولعنتُ ميلاري على أن أوكل إليّ تلك المهمّة السرّية اللعينة.

وبدلاً من أن يهوّن باغيت الأمر عليّ قال لي: ما أدراك يا سير أوستاس؟ فقد يكون رايبورن محتالاً مزيّفاً وأن وزارة الخارجية لم تُوفِده إليك ليصحبك كسكرتير إضافي وأنه زعم لديك أنه موفد من قبل ميلاري؛ فهو لم يقدِّم إليك أيّ خطاب رسمي يؤيّد هذا، فهلا تحقّقتَ من أنه لم يكذبك القول؟

ثم اقترح باغيت أن نبعث ببرقية إلى ميلاري نستفسر فيها عن رايبورن، وفي نفس المساء جاءنا الردّ بأن وزارة الخارجية لا تعلم شيئاً عن هذا المدعو رايبورن وأنها لم توفده إليّ. وما لبث باغيت أن خرج إليّ بأسطورة ثانية، فقد جاء يهمس في أذني بأن رايبورن لا بدّ أن يكون هو ذلك القاتل الشهير، الرجل صاحب البدلة البنية الذي يطارده رجال الشرطة ويسعون في أعقابه. ولم أحاول في تلك المرّة أن أكذّبه؛ فقد عوّدني في المرتين السابقتين أن يكون صادقاً في تأويلاته وسوء ظنّه، ولكنني قلتُ له: أَولى بي أن أبادر بالسفر إلى روديسيا، ولكنك لا يمكن أن تصحبني بهذه العين السوداء المتورّمة، فكيف أقابل أقراني من رجال الأعمال وأقدِّم لهم سكرتيراً يبدو وكأنه ملاكم خرج لتوّه من الحلقة مهزوماً مضروباً؟!

- ولكن ماذا عساك أن تفعل برسائلك؟ مَن الذي سيدوّنها لك؟

- سأدبّر الأمر بطريقة ما. سأعرض على الآنسة بيدنغفيلد أن تصحبني وتعمل سكرتيرة لي.

وقد دهشتُ حين اعترض باغيت على اقتراحي، ثم أخذ يلحّ في الرجاء بأن لا أستخدم آن بيدنغفيلد، ولكي أغيظه تشبّثت بها ثم تركته ساخطاً متبرّماً.

* * *

الفصل السادس عشر

آن بيدنغفيلد تروي قصّتها

صحوت في ذلك الصباح مبكّرة فصعدتُ إلى الجزء الأعلى من سطح الباخرة لأنظر إلى روعة الجبل الشامخ الذي تكلّله السحب البيضاء كأنها تاج من الزهر الناصع البياض، والتفتُّ فإذا بي ألمح شبح رجل في الركن القصيّ من المكان غارقاً في تأمّلاته وأحلامه، ولكن ما لبثت أن رأيته يترك مكانه ويتجه إلى ناحيتي ويلقي إليّ بالتحية. ولم يكن هذا الرجل سوى رايبورن، فقال: أريد أن أعتذر إليكِ عمّا بدر منّي أمس.

- لقد كانت ليلة حافلة.

- هلا غفرت لي خشونتي وسوء أدبي؟

فبسطت إليه يدي أصافحه دون أن أنطق بكلمة، ثم تجهّم وجهه قليلاً وقال بنبرات رزينة: آنسة بيدنغفيلد، أرجوك أن تستمعي إليّ، أنت مُهدَّدة بأخطار لا يمكن أن تعرفي مداها؛ فأنت أمام منظّمة إجرامية خطيرة لا يتورّع أفرادها عن أشدّ جرائم القتل وحشية. أنا خائف عليك.

- ولكن ما الذي يحملك على تحذيري؟

فسكت برهة يتأمّلني ثم قال: لقد أنقذت حياتي، وهذا أقلّ شيء أردّ به جميلك، ولكن إذا قُدّر لي أن أنزل إلى البرّ فسأحاول أن أساعدك؟

- ماذا تعني بقولك إذا قُدّر لك أن تنزل إلى البرّ؟

- هناك آخرون يعرفون أنني ذو البدلة البنية، فإذا وشوا بي قُبض عليّ فوراً، وإن كنت أعتقد أن الرجل لن يبلّغ عني لأنه يريد أن يستغلّني ويرى أنني حرّاً طليقاً أنفع له منّي مقيّداً سجيناً.

وصمت قليلاً ثم نظر إليّ وأردف قائلاً: والآن وداعاً؛ فأغلب الظنّ أننا لن نلتقي مرة أخرى.

- بل سوف نلتقي.

وشدّ على يدي يصافحني.

ومرّت الساعتان التاليتان والقلق يكاد يفترسني، وأخذتُ أسائل نفسي عن مصير رايبورن. تُرى هل تلقي الباخرة مراسيها فينزل إلى البرّ في سلام أم يشي به ذلك الرجل الذي يعرف سرّه فيُقبض عليه؟ ولم أهدأ بالاً إلا حين رأيتُ رايبورن يغادر السفينة إلى البرّ دون أن يتعرّض له أحد بسوء، ثم لحقتُ بسوزان فركبنا إحدى سيارات الأجرة ومضينا معاً إلى فندق نيلسون لأقضي الليلة معها طبقاً لاتفاقنا.

وعندما وصلنا إلى الفندق نزلنا في غرفتين متجاورتين، ثم

ذهبتُ إلى سوزان في غرفتها فسألتني: هل رأيت باغيت اليوم؟ لقد التقيتُ به مصادفة فرأيتُ له عيناً سوداء متورّمة كأنما تلقّى لكمة عليها.

فقلت ضاحكة: فعلاً، لقد أصيبت عينه بلكمة.

ثم رويتُ لها ما حدث بيني وبين باغيت وكيف حاول أن يخنقني ويقذف بي إلى البحر لولا أن أسرع رايبورن إلى نجدتي فعاجله بلكمة طرحته أرضاً.

- هذا عجيب! اللغز يزداد غموضاً، ويبدو أنني أنا أيضاً مهدَّدة بالخطر!

- لا أظنّ؛ فأنتِ ما زلت بعيدة عن الشبهات.

فقالت سوزان: بالمناسبة، ناوليني هذه الورقة لأبعث ببرقية إلى كلارنس.

ثم كتبت هذه الكلمات على الورقة: «تورّطتُ في لغز مثير. أرسل إليّ ألف جنيه فوراً». وقد أتى بعض الأصدقاء من أهل المدينة يزورون سوزان فانشغلت بهم عنّي، فخرجتُ أتجوّل في المدينة لأشاهد معالمها وأشغل وقت فراغي. وحين عدتُ إلى الفندق وجدت في انتظاري رسالة من أمين المتحف يقول فيها إنه عرف من قائمة ركّاب الباخرة المنشورة في الصحف أنني ابنة عالم الأجناس الشهير الأستاذ بيدنغفيلد وإنه سبق أن التقى بأبي مرّة أو مرّتين ولذلك يسعده أن أتناول الشاي معه ومع زوجته في بيته في مويزنبرغ بعد ظهر اليوم، وقد وصف لي موقع الفيلاّ فأسرعت إلى المحطة وركبت القطار المسافر إلى مويزنبرغ.

واهتديت إلى فيلاّ ميدجي بسهولة، وكانت في ركن قصيّ من الشاطئ، وفتح لي الباب خفير شابّ فسألته عن السيدة رافيني فأجاب بأنها في انتظاري ودعاني إلى الدخول. وما كدتُ أتخطّى الباب حتى دُفع ورائي بعنف، ثم تقدّم إليّ شخص ملتحٍ يحيّيني بلكنة هولندية وقال: إذن فقد وفّقنا إلى إغرائك بالحضورً يا آنسة بيدنغفيلد.

وكانت في نبرته لهجة وعيد وتهديد وفي عينيه نظرة تتّقد شرّاً، وعندئذ وضحت لي الحقيقة في جلاء. لقد وقعتُ في يد الأعداء وذهبتُ إلى موعد مع الموت.

* * *

الفصل السابع عشر

قلت أخاطب الرجل الملتحي: لقد دعاني أمين المتحف كي أتناول الشاي معه، فإذا كنتُ قد أخطأت البيت...

فقاطعني: أنت لم تخطئي البيت بل أخطأت الدعوة أصلاً. أنت أسيرتي يا آنسة بيدنغفيلد.

- وبأيّ حقّ تحتجزني؟ سوف أبلغ الشرطة.

فضحك بسخرية وقال: هذا إذا قُدّر لك أن تغادري هذه الفيلاّ وأنت على قيد الحياة.

فاستويت جالسة على أحد المقاعد وأنا أقول: يجب أن أنبّهك إلى أن أصدقائي يعرفون وجهتي، فإذا لم أعُد إليهم حتى المساء فسيبحثون عني ومعهم رجال الشرطة.

فقال يتحدّاني: هل حقاً أصدقاؤك يعرفون مكانك؟ مَن منهم يا تُرى؛ فأصدقاؤك كثيرون؟

وكان لا بدّ أن أقبل التحدّي فأجبتُ وأنا أعلم أنني كاذبة: السيدة بلير، وهي صديقة لي وأنزل معها في نفس الفندق.

- أكذوبتك مفضوحة يا آنسة بيدنغفيلد؛ فأنت لم تقابلي السيدة بلير منذ الحادية عشرة صباحاً لانشغالها مع بعض الأصدقاء، في حين أنك تسلّمت رسالتي وأنت على مائدة الغداء.

وأدركتُ من ردّه أن حركاتي كانت موضع المراقبة فقلت له: ألم تسمع قطّ بذلك الاختراع الذي يسمّونه الهاتف؟ لقد اتصلت بي السيدة هاتفيّاً وأنا في غرفتي بعد الغداء فأخبرتُها أنني ذاهبة إلى فيلاّ ميدجي في مويزنبرغ لتناول الشاي.

وأفلحت خدعتي؛ فقد بدت أمارات القلق على وجه الهولندي وصدّق قولي، ثم هبّ واقفاً وهو يقول: كفاك هذا.

فسألته وأنا أحاول أن أبدو هادئة متماسكة: وما الذي تنوي أن تفعل بي؟

- سأُودِعك مكاناً لا تملكين فيه أن تسيئي إلينا إذا ما جاء أصدقاؤك في أعقابك.

فسرت البرودة في أوصالي؛ فقد فهمتُ من كلماته أنه ينوي أن يقتلني. ثم استطرد يقول: عليك غداً أن تجيبي على بعض الأسئلة، وبعدها ننظر فيما سوف نفعل بك.

فشعرتُ بالاطمئنان في نفسي؛ فسوف أظلّ على قيد الحياة حتى صباح الغد على الأقلّ. وقد فهمت من إرجائه الأمر إلى الغد أنه مجرّد مرؤوس لا يملك من الموقف شيئاً، ولكن تُرى من يكون ذلك الزعيم؟ أيكون هو باغيت؟

ثم استدعى الهولندي اثنين من الخفراء فأمرهما أن يصعدا بي

إلى الطابق الأعلى، كما أمرهما بشدّ وثاقي وتقييد يدي وقدمي بحبل أحكما شدّه حتى كاد أن يقطع لحمّي، ثم انحنى الهولندي أمامي بسخرية وقال: إلى اللقاء غداً يا ضيفتي العزيزة.

وتركني وحدي عاجزة موثقة اليدين والساقين لا أجد وسيلة إلى الخلاص، وحاولتُ أن أتخلّص من قيودي فغرز الحبل في لحمي وآلمني إيلاماً شديداً، وقد أرهقتني المحاولة وأنهكت قوَاي فما لبثت أن غرقت في اليوم. وحين صحوت كان الليل قد حلّ، وعلى شعاع ضوء القمر الذي يتسرّب من النافذة لمحتُ شيئاً يبرق في ركن الغرفة. فركّزت بصري على ذلك الشيء فتبيّنتُ كنهه على الفور. لقد كان قطعاً من الزجاج المكسور، ولو أنني استطعت أن أصل إلى ذلك الركن القصيّ من الغرفة وأن أمسك بقطعة من الزجاج أقطع بها الحبل الذي يدور بمعصمي وساقي لنجوت.

وبدأت أتدحرج على الأرض خطوة بعد خطوة والحبل يُلهِب جسدي بالألم، وأخيراً وصلتُ إلى قِطَع الزجاج المكسور، وجاهدت طويلاً أن أسند قطعة منها على الجدار، وأخيراً أفلحتُ وبدأت أحكّ الحبل الدائر بمعصمي في طرفها الحادّ، ورويداً أخذت خيوط الحبل تنبري، وأخيراً انقطع الحبل وإذا بيدي حرّة طليقة. وكان الأمر بعد ذلك سهلاً هيّناً، فقد استطعتُ دون عناء أن أقطع باقي قيودي. وكان الشيء الذي أشتاق إليه في تلك اللحظة هو لقمة خبز أسدّ بها جوعي إذ لم أكن تناولت شيئاً منذ الغداء، ولكن أين السبيل إلى ما أرجو؟

فتحتُ باب الغرفة بحرص وحذر ولم يكن مغلقاً بالمفتاح

من الخارج لحسن حظي؛ فهُم لم يروا ما يدعوهم إلى ذلك وأنا موثَقة لا سبيل لي إلى الهرب، ثم تسلّلت إلى الممشى وبدأت أهبط درجة بعد درجة في خطوٍ رقيق حذِر، وعندما بلغت منعطف الدرَج لمحت الخفير الصبي جالساً على مقعد بالقرب من الباب فجمدت مكاني خائفة، ولكنني ما لبثت أن أدركتُ أنه غارق في النوم، فتابعت نزولي في جرأة حتى بلغت باب الغرفة وألصقت أذني به، فلم أكَد أتبيّن إلا أصوات مختلطة غير واضحة فملت إلى ثقب الباب أختلس النظر من خلاله.

لقد كان سجّاني الهولندي جالساً في صدر الغرفة، وكان هناك رجل آخر عرفتُه على الفور هو القسّ شيستر رفيقي في الباخرة قصر كيلموردن. وجعلتُ أذني على ثقب الباب فبدت الكلمات أكثر وضوحاً وجلاء، وقد تبيّنتُ صوت الهولندي وهو يقول: لنفرض أن أصدقاءها جاؤوا يبحثون عنها.

فأجابه شيستر: هي تحاول أن تخدعكم؛ فهم لا يعرفون مكانها، ومع ذلك فهذه هي أوامر الكولونيل.

فقال الهولندي مزمجراً: ولكن لماذا لا نقتلها في الحال ونحملها إلى المركب ونقذف بها في البحر؟

فقال شيستر: ولكننا لا نستطيع أن نخالف أوامر الكولونيل؛ فهو يريد أن ينتزع منها بعض المعلومات.

فقلت في نفسي وأنا أستمع إلى تلك الكلمات: معلومات عن الماس طبعاً.

فقال شيستر: والآن ناولني القوائم لأطّلع عليها.

وأخيراً سمعتُ القسّ شيستر يقول: حسناً، سآخذ هذه القوائم معي لأُطلع عليها الكولونيل.

- أتريد أن تقابل الفتاة؟

- لا؛ فقد أمر الكولونيل أن تُترَك وحدها حتى يحضر إليها غداً بنفسه. إنها طبعاً موثَقة بإحكام، أليس كذلك؟

فأجابه الهولندي: طبعاً، فأنا الذي قيّدتُها بنفسي.

ثم سمعت القسّ شيستر يزيح مقعده استعداداً للانصراف فأسرعتُ بالانسحاب وتسلّلت راجعة إلى سجني ورقدت على الأرض كما كنت من قبل، ثم لففت الحبال حول معصمي وساقي حتى إذا خطر لهم أن يلقوا نظرة عليّ ظنوا أنني لا زلت في أغلالي. ولبثت ساعة ساكنة في مرقدي أتحيّن الفرصة للفرار، وحين تسلّلت من الغرفة مرّة أخرى وجدت الخفير ما زال جالساً على مقعده عند الباب، ولكنه كان يقظاً ساهراً على الحراسة.

وطلع الفجر وبدأت الأصوات تأتي من الطابق الأرضي، فوقفت بباب غرفتي أنصتُ إليها فأدركت مما سمعت أنهم فرغوا من تناول الإفطار، ثم غادر شيستر المنزل بصحبة الهولندي. وأطللت من فوق الدرَج فوجدت الخفير يدخل إلى قاعة الطعام ليرفع الصحاف، وعندئذ لم أتردّد لحظة واحدة فهبطت الدرَج مسرعة وانطلقت إلى الخارج وأنا أجري بكل سرعتي.

* * *

الفصل الثامن عشر

كان الناس ينظرون باستغراب إلى هذه المرأة التي تركض بأقصى سرعتها، ولكنني كنتُ لا أزال أسألهم من حين لآخر أين المحطة فيشيرون إليها فأتابع الجري وبذلك تتبدّد دهشتُهم على الفور؛ فمن المألوف أن يجري المرء ليلحق بقطاره قبل أن يتحرّك، وحين رأتني سوزان ارتمت على صدري وهي تقول: أين كنت يا حبيبتي آن؟ أين بتِّ الليلة؟ لقد انزعجتُ عليك انزعاجاً شديداً!

- كنت غارقة في المغامرات.

ثم رويت لها ما مرّ بي فقالت: لقد كنتِ مهدَّدة بالموت حقاً!

ثم أردفت: والآن ما هي خطتنا المستقبلية؟

- أنتِ مسافرة إلى روديسيا لتراقبي باغيت طبعاً.

- وماذا عنك؟ ما الذي تنوين؟

وكان سؤالاً من الصعب الإجابة عليه. لقد رأيت القسّ

شيستر بين المتآمرين، ولكنه لا يعرف أنني كشفتُ سِرّه، فإذا استطعت أن أراقب تحرّكاته فذلك كفيل بإماطة اللثام عن اللغز الخفيّ، ولكن ما الذي يعتزمه شيستر الآن؟ هل ينوي أن ينفّذ خطّته الأصلية فيسافر إلى ديربان؟ أم أنه سيعدل عن ذلك وسيواصل رحلته على الباخرة؟ ثم رأيت أن أسافر إلى ديربان، فإذا ما بلغه فراري فلا أسهل عليه من أن يترك المركب في أحد الموانئ ويلحق بي في ديربان.

وقد علمت أن القطار يتحرّك إلى ديربان في الثامنة. وسألتني سوزان ونحن نتناول الشاي في قاعة الجلوس: وهل تستطيعين يا تُرى أن تتعرّفي على شيستر؟ أعني إذا تنكّر على صورة أخرى.

وفي تلك اللحظة دخل الكولونيل ريس إلى القاعة وانضمّ إلينا، فسألته سوزان: أنا لم أرَ السير أوستاس اليوم، فأين هو؟

- لديه مشكلة أقضّت عليه مضجعه.

- حقاً؟ حدّثنا عنها إذن. ما مشكلته؟

وسكت هنيهة ثم قال: ما رأيك إذا عرفت أن الرجل ذا البدلة البنية كان رفيقاً لنا طوال هذه الرحلة؟

فضحكت سوزان وقالت: حقاً! ماذا تقول؟

واستطرد ريس قائلاً: ورجال الشرطة يراقبون جميع الموانئ. لقد استطاع أن يخدع بيدلر ويلتحق بالعمل لديه سكرتيراً له.

- أتعني أن باغيت هو ذو البدلة البنية؟!

- بل أعني السكرتير الآخر رايبورن.

فتساءلت سوزان: وهل قبضوا عليه؟

- لقد ذاب في الهواء.

- وما رأي السير أوستاس فيما حدث؟

- إنه يكاد يُجنّ غضباً.

ثم أُتيح لنا بعد الظهر أن نعرف رأي السير أوستاس في الأمر، فقد دعانا إلى مشاطرته الشاي وقال وفي صوته نبرة من الغضب: أولاً امرأة أجنبية تُقتل في بيتي في فيلاّ الطاحونة، فلماذا اختارت بيتي من دون بيوت الناس أجمعين؟! وثانياً يأتي القاتل إليّ، وبكل جسارة يطلب منّي أن أُلحقه بخدمتي سكرتيراً، وهكذا أصبح لي سكرتيران، أحدهما قاتل سفّاح، والثاني يدمن الخمر حتى يفقد توازنه فيقع على الأرض وتتورّم عينه!

ثم التفت السير أوستاس إليّ وقال: ما رأيك يا آنسة بيدنغفيلد في أن تعملي سكرتيرة لي بصفة مؤقّتة ريثما تُشفى عين باغيت المتورّمة؟

فقلت: شكراً لك يا سير أوستاس؛ فأنا مسافرة الليلة إلى ديربان.

وحاول أن يغريني بالقبول ولكنني صمّمتُ على الاعتذار، فضغط السير أوستاس الجرس واستدعى باغيت وقال له: لقد

اعتذرت الآنسة بيدنغفيلد عن العمل سكرتيرة لي، فاذهب إلى الغرفة التجارية وابحث لي عن سكرتيرة تجيد الاختزال.

وحين خلوت إلى سوزان قلت لها: علينا إذن أن نعدّل خطّتنا، فباغيت باقٍ هنا ولن يرافق السير أوستاس في رحلته إلى روديسيا، وبذلك سيفلتُ من مراقبتك له.

- إذن سأبلغ السير أوستاس أنني عدَلت عن مرافقته إلى روديسيا.

- لو أنك فعلت هذا لأثار تصرّفك شكوك باغيت، ثم إن سفرك ضروريّ على أية حال حتى يتسنّى لك مراقبة الآخرين.

ثم أخذنا نتداول في الأمر، وأخيراً قلت: اسمعي يا سوزان، لديّ فكرة ستمكّنني من مراقبة باغيت. سأتظاهر بأنني مسافرة الليلة إلى ديربان، ثم أمضي إلى أحد الفنادق فأقضي فيه ليلتي خفية دون أن يخطر ببال أحد أنني لم أغادر كيب تاون، وفي الصباح أغادر الفندق متنكّرة وأقتفي خطوات باغيت.

- هل تنوين أن تضعي شارباً مستعاراً؟!

فضحكت وقلت: سأضع نظارة سوداء سميكة وأغيّر تصفيف شعري وأدهن حاجبي بخطّ أسوَد كثيف، فإذا ما رآني باغيت استحال عليه أن يعرفني.

فأقرّت سوزان تلك الخطة وراقت لها. وتناولنا العشاء على مائدة السير أوستاس، وكان في نيّتي أن أودِّعه بمسمع من باغيت وأن أقول له إنني مسافرة الليلة إلى ديربان، ولكن باغيت تناول طعامه في عجلة وترك المائدة قبل أن تُتاح لي تلك الفرصة.

ولما فرغنا من العشاء ذكرتُ للسير أوستاس أنني مسافرة فقال: هكذا سمعت. بالمناسبة، يمكنك أن تستقلّي السيارة مع باغيت ليوصلك إلى المحطة، فهو خارج الآن.

وكان هذا طبعاً كفيلاً بأن يفسد خدعة تظاهري بالسفر إلى ديربان، فقلت معتذرة: شكراً لك، فقد استدعت السيدة بلير سيارة أجرة وستصحبني إلى المحطة، ثم مضينا إلى ردهة الفندق فقلتُ لأحد السعاة: استدع سيارة أجرة وانقل إليه حقائبي.

وسمعت صوتاً ورائي يقول: لا داعي لسيارة أجرة، يمكنني أن أوصلك إلى المحطة بسيارة السير أوستاس، فأنا خارج الآن.

وكان المتكلّم هو باغيت، فاعتذرتُ ولكنه ألحّ، ولم أرَ مناصاً من القبول حتى لا أُثير شكوكه. وتوقّفت بنا السيارة أمام مبنى المحطة، ثم أتى أحد الحمّالين فحمل حقيبتي، ومددت يدي إلى باغيت أصافحه وأشكره ولكنه قال: لديّ مُتّسع من الوقت، فلا بدّ أن أصحبك إلى داخل المحطة إلى أن يتحرّك القطار.

وهكذا صحبني حتى استويت جالسة في مقصورتي. وقد وقف مع سوزان على رصيف المحطة يتحدّثان إليّ، ولكنني كنت لاهية عنهما لا أكاد أفقه حرفاً مما يقولان فكنتُ أقول لنفسي: كيف أتخلّص من هذه الورطة؟ أنا لم أكن أنوي السفر إلى ديربان، ولكن وجود باغيت يحول دون أن أتسلّل من القطار، فما العمل؟ ما العمل؟!

ويبدو أن سوزان هي الأخرى كانت تفكّر في طريقة تنقذني

بها من تلك الورطة، فنظرت إلى ساعتها وقالت: سيتحرّك قطارك بعد خمس دقائق. هي رحلة طويلة شاقّة وسوف تعانين من الحرّ، فهل أتيت معك بقنّينة عطر؟

ففهمت ما ترمي إليه، فقد كانت هي نفسها التي زوّدتني بقنّينة عطر، فهتفت بصوت ينمّ عن الأسف: يا إلهي، لقد نسيت!

فتحوّلت سوزان إلى باغيت وقالت له: أمام المحطة صيدلية، فأسرع واشترِ قنّينة عطر من فضلك.

فقال معترضاً: ولكن الوقت ضيّق.

- أمامك أربع دقائق، فإذا أسرعت فسوف تعود في الوقت المناسب.

وتلكّأ باغيت وتردّد ولكن السيدة بلير بلهجتها الآمرة صرخت فيه: هيا تحرّك! أسرع، أسرع.

ولم يسَعْ باغيت إلا أن يلبّي أمرها، فأسرع يهرول عبر الرصيف حتى خرج من فناء المحطة، فهتفت بي سوزان: والآن اخرجي من الباب الثاني للمركبة وانزلي على الرصيف المقابل وتواري عن الأنظار، فباغيت لن يعود إلا بعد أن يتحرّك القطار، أمّا ثيابك فلا تهتمّي بها فيمكنك أن تشتري غيرها على حسابي، أمّا أنا فسأظلّ واقفة بجانب نافذة المقصورة أتظاهر بأنني أتحدّث إليك.

فأسرعتُ أنفّذ المؤامرة، وفي خلال ثوان كنت متوارية وراء أحد الأعمدة على الرصيف المقابل. ونجحت الخطة وتحرّك

القطار وباغيت قادم يلهث ركضاً عند باب المحطة، ولوّحت سوزان بيدها كأنها تودّعني والقطار يبتعد ويزيد من سرعته رويداً رويداً، ثم لحق بها باغيت وفي يده قنّينة العطر، فالتفتت إليه سوزان قائلة: آه، لقد تأخّرت... هذا شيء يؤسف له!

وبينما أنا أخرج من باب المحطة مهرولة اصطدمت برجل ضئيل الجسم ذي أنف ضخم لا يتناسب مع وجهه الصغير، فاعتذرت إليه وتابعتُ طريقي.

* * *

الفصل التاسع عشر

لم أجد صعوبة في تنفيذ خطّتي؛ فقد اهتديت بسهولة إلى فندق صغير في أحد أطراف المدينة. وفي الصباح الباكر غادرت الفندق وذهبت إلى المدينة لأشتري مجموعة من الأثواب الرخيصة وقبّعة أخفي بها معالم وجهي. وعندما فرغت من شراء ما أحتاج إليه ركبت القطار ومضيت إلى إحدى الضواحي الريفية، ورحت أتمشّى في الشوارع الهادئة لأستمتع بالهواء النقي حتى يحين وقت سفر السير أوستاس. ثم انعطفت في شارع جانبي، ولاحظت أن رباط حذائي قد انحلّ فانحنيت لأربطه وإذا بشخص يبرز من المعطف ورائي وكاد أن يصطدم بي فرفع قبّعته وتمتم ببعض كلمات الاعتذار ثم مضى في طريقه. وخُيّل إليّ أن وجهه مألوف لدي، وفجأة تذكّرت ذلك الوجه، فهو نفس الشخص الضئيل الجسم ذي الأنف الكبير الذي اصطدم بي عند مغادرتي المحطة.

ما الذي أتى بهذا الشخص إلى هذه الضاحية القصيّة؟ تُرى هل يتعقّب خطواتي؟

ثم نظرت إلى ساعتي واتجهت إلى محطة القطار، ولمحت

قطاراً يكاد يتحرّك فأسرعت اركض لألحق به، وإذا بي أسمع وقع خطوات تركض في أعقابي، فالتفتُّ خلسة فإذا بذي الأنف الكبير هو الذي يتعقّبني، وفي اللحظة التي بلغت فيها القطار وتعلّقت به كان هو الآخر قد حذا حذوي وتعلّق بنفس القطار. تُرى أكان الأمر مجرّد مصادفة أخرى أم أنه يطاردني ويتعقّبني؟

وأردت أن أستوثق من الأمر فشددت حبل جرس القطار فجأة قبل أن يبلغ المحطة التالية ونزلت فيها، ولم يكن في وسعه أن يحذو حذوي وإلاّ كشف نفسه. وتواريت في أحد الأركان ثم رأيته قادماً من ناحية المحطة التالية وهو يوسع الخطى لاهثاً وعيناه تدوران في أرجاء المكان بحثاً عنّي. ولم يعُد في الأمر خفاء بعد ذلك، وقلت لنفسي: لا شكّ أنه جاسوس يتعقّب خطواتي، إذن فجاي باغيت يعرف الآن أنني لم أسافر إلى ديربان فأطلق هذا الشخص في أثري!

ثم ركبت القطار التالي وفعل مطاردي مثلما فعلت، فأيقنت عندئذ أن المسألة ليست قاصرة على باغيت وحده، فلا شكّ أنني إزاء منظمة قوية يرأسها ذلك الكولونيل الغامض ولها أعوان وأنصار في كل أنحاء البلاد. ثم استعدت إلى ذهني بعض ما دار من حديث في الباخرة قصر كيلموردن، وكيف كانوا يتحدّثون عن الإضراب الشامل الذي سيقوم به العمّال وحوادث التخريب التي وقعت دون أن تكتشف الشرطة مرتكبيها. لا شكّ أن الكولونيل الغامض وراء تلك الأحداث كلّها.

وبلغ القطار محطة شارع إديرلي فنزلت منه ومضيت أسير

على الرصيف الأيسر، ولم أحاول أن أختلس النظر ورائي؛ فقد كنت موقنة من أن مطاردي في أعقابي. ثم دخلت إلى مقهى مررت به في طريقي فجلست إلى طاولة وطلبت عصيراً، ثم أخذت أرشفه على مهل فرأيت مطاردي يدخل ورائي ويجلس إلى مائدة قريبة من باب المقهى، وفجأة هبّ مطاردي واقفاً وخرج إلى الطريق، فخطر لي أنه لا بدّ يكون قد خرج لأنه لمح في الطريق شخصاً ما وأراد أن يتحدّث إليه.

ثم نظرت إلى الخارج فرأيت مطاردي يتحدّث إلى شخص آخر، وما كان هذا الشخص إلا جاي باغيت. وتبادلا الحديث برهة، ويبدو أن باغيت أصدر إليه تعليماته فما لبثت أن رأيته ينصرف إلى شأنه بعد أن نظر إلى ساعته. ودهشت حين رأيت مطاردي يعبر الطريق ويتّجه إلى شرطي كان واقفاً على الرصيف المقابل، وتحدّث الرجل طويلاً إلى الشرطي، وكان في خلال ذلك يشير إلى المقهى. تُرى ما الذي يريده مطاردي من الشرطي؟

وفجأة وضَحت الخطة لي وانجلت أمام عيني، فهي نفس المؤامرة الجهنّمية القديمة، فكما اتهموا هاري رايبورن من قبل بأنه هو الذي سرق ماسات دي بيرس ولفّقوا له ذلك الاتهام الزائف فهم يريدون الآن أن يلصقوا بي أية تهمة، تهمة سرقة مثلاً حتى يقبض الشرطي عليّ ليبعدوني من طريقهم. فأسرعت ودفعت للبائع ثمن العصير، وقد دهشت عندما وجدت في حقيبتي حين فتحتُها محفظة محشوّة بأوراق النقد. يا لدهائهم وبراعتهم! لقد استطاعوا أن يضعوا الحافظة في حقيبتي ليتّخذوا

منها دليلاً على أنني نشلتُها من مطارِدي وبذلك يصدُق عليّ الاتهام.

خرجت من المقهى مسرعة فرأيت مطاردي وفي رفقته الشرطي يتّجهان إلى ناحيتي، فأسرعت أركض صوب محطة السكك الحديدية ودخلت إلى فناء المحطة من الباب الرئيسي في شارع إديرلي، ثم نفَذت من الباب الجانبي ولكن مطاردي لم يحاول أن يلحق بي؛ فقد ظنّ أنني سأدور حول المبنى لأدخل مرة أخرى من الباب الرئيسي لأستقلّ أيّ قطار على وشك السفر، ولذلك آثر أن يرتدّ مع الشرطي وأن يعودا ثانية إلى الباب الرئيسي، ولكنني ما كدت أراهما يفعلان ذلك حتى نفَذتُ من الباب الجانبي فعدت إلى المحطة. ورأيت قطاراً يتحرّك فأدركت على الفور أنه القطار الذي يستقلّه السير أوستاس؛ فقد كان ذلك هو موعد مسيره، فقفزت إليه ورآني مطاردي والشرطي أثِب إلى القطار فأسرعا في أثري، ولكن كان مستحيلاً أن يلحقا بي وقد بدأ القطار يزيد من سرعته ويطوي الأرض.

وأتى قاطع التذاكر فقلت له: أنا سكرتيرة السير أوستاس بيدلر، فأرجو أن تذهب بي إلى حجرته.

وفوجئ السير أوستاس وأصحابه حين دخلت عليهم، وهتف الكولونيل ريس قائلاً: عجباً! أنتِ هنا؟! كنت أظنّ أنك سافرت ليلة أمس إلى ديربان!

وضحك السير أوستاس وقال: أنا سعيد بعودتك؛ فقد سئمت سكرتيرتي الدميمة الآنسة بيتغرو، أمّا الآن فها أنت قد جئت نجدة لي.

فأغرقنا جميعاً في الضحك. وحين دخلت علينا الآنسة بيتغرو بعد لحظات ورأتني عراها اضطراب مفاجئ وأفلت من أصابعها قلم الرصاص الذي كانت ممسكة به فانكسر سنّه، فلماذا اضطربت؟ أجل، لماذا؟ كان هذا سرّاً مستغلقاً لم أجد له تعليلاً.

* * *

الفصل العشرون

نقلاً عن مذكّرات السير أوستاس بيدلر

ها أنا ذا الآن مسافر إلى روديسيا ومعي ثلاث سكرتيرات، وقد احتكر ريس لنفسه الفتاتين الجميلتين وتركني مع تلك الدميمة الآنسة بيتغرو التي نُكبتُ بها. هناك شيء عجيب غامض بشأن آن بيدنغفيلد؛ فلقد ذكرت ليلة أمس أنها مسافرة إلى ديربان، ثم إذا بها تظهر فجأة في اليوم التالي وتقفز إلى القطار في اللحظة الأخيرة بعد أن تحرّك، فأين كانت وأين أمضت ليلتها؟!

وقد أكّد لي باغيت أنه شيّعها إلى المحطة وأن القطار تحرّك بها أمام عينيه. الحقّ أن لديّ مجموعة عجيبة من المساعدين، الأوّل سكرتير قاتل سفّاح هارب من الشرطة، والثاني مدمن سافر إلى فلورنسا ليتورّط في بعض الجرائم والمؤامرات، والسكرتيرة الثالثة فتاة حسناء لها القدرة على أن توجد في مكانين مختلفَين في وقت واحد، في ديربان وفي الوقت ذاته في كيب تاون، أمّا السكرتيرة الرابعة الآنسة بيتغرو فلا شكّ أنها عضو في إحدى العصابات!

وضقت ذرعاً بتلك الخواطر التي انهالت عليّ فمضيت إلى

شرفة المركبة الأخيرة، فرأيت الكولونيل ريس محاطاً بسيدات يسرد عليهنّ حكاياته التافهة، وكانت السيدة بلير تحمل آلة تصوير وهي منهمكة في التقاط عشرات الصور لكل ما حولها حتى للقطار الذي تستقلّه. وسألتني السيدة بلير قائلة: إلى متى تنوي أن تظلّ في مدينة الشلالات يا سير أوستاس؟

فأجبت بحذر: هذا يتوقّف على الحالة في جوهانسبرغ؛ فأنا لا أريد أن أزورها في الوقت الحاضر لأنني أعتقد أن الثورة وشيكة الاندلاع.

فابتسم الكولونيل ريس وقال باستعلاء: مخاوفك لا أساس لها يا سير أوستاس، فجوهانسبرغ مدينة هادئة.

وأحرجتني كلماته؛ فقد بدوتُ أمام النساء الحاضرات جباناً رعديداً تذهب بي الأوهام كل مذهب، فقلت له ببرود: أحسبكَ تنوي أن تزور جوهانسبرغ، أليس كذلك؟

- هذا محتمَل جداً، وأرجو أن أصحبك إليها.

- ربما أطيل إقامتي في مدينة الشلالات.

ولكن لماذا يحاول ريس أن يغريني بزيارة جوهانسبرغ؟ لعله مُغرَم بآن بيدنغفيلد ولا يريد أن يفترق عنها، فهو يعلم أنها ستظلّ في صحبتي. وقد كُشف لي شيء من غموض آن بيدنغفيلد فعلمتُ أنها تعمل محرّرة في صحيفة الديلي بادجيت، فقد بعثت وهي في مدينة دي آر بالعديد من البرقيات إلى صحيفتها، وقد خُيّل إليّ من الثرثرة التي تناهت إلى أذني طوال الليل وهي تحدّث السيدة بلير في مقصورتها وتتلو عليها مقالاتها بأنها كانت

منذ أسابيع تُطارِد الرجل ذا البدلة البنية وأنها لم تكن تعرف أنه يشاطرها نفس الرحلة في الباخرة كيلموردن.

وفهمتُ أيضاً من حديثها مع السيدة بلير أنها اكتشفت شخصية الأجنبية التي قُتلت في البيت الذي أملكه في مارلو، أي في فيلاّ الطاحونة، فقد عرفت أنها راقصة روسية شهيرة تُدعى نادينا. ومهما يكن من أمر فقد قالت في برقياتها للصحيفة إن شرطة جنوب إفريقيا تبحث عن الرجل ذي البدلة البنية وإن أوصافه وُزّعت على جميع رجال الشرطة. وفي كل محطة نقف فيها تشتري هي والسيدة بلير تلك الدُّمى الصغيرة الحقيرة التي يصنعها المواطنون من أهل البلاد حتى بلغ عدد ما اشتريناه منها نحو خمسين دمية. ترى ما سرّ غرامهنّ بتلك الدّمى المضحكة التافهة المصنوعة بطريقة بدائية سخيفة؟

* * *

الفصل الحادي والعشرون

آن بيدنغفيلد تتابع قصّتها

كان البائعون ينقضّون على القطار ومعهم دُمى من الخشب تمثّل الحيوانات التي تزخر بها الغابات، والذي حدث بعد هذا أننا بدأنا نشتري تلك الدمى في كل محطة نقف فيها، بل أخذنا نتنافس على الشراء مأخوذتَين مبهورتَين.

وفي الليلة التي انضممت فيها إلى جماعة السير أوستاس بيدلر في القطار سهرت في حجرة سوزان أروي لها تفصيلات الأحداث التي مرّت بي وكيف أن المنظمة السرّية أصبحت تتعقّب خطواتي بوحشية، وكيف أنهم يرمون إلى اختطافي لينتزعوا مني بعض المعلومات. ثم خطرت ببالي فكرة جديدة فقلت لسوزان: ولكن لماذا لا يكون باغيت هو نفسه الكولونيل الغامض رئيس العصابة الخفي؟

ولكن سوزان أبَت أن توافق على تلك الفكرة قائلة إن باغيت ضعيف الشخصية فلا يمكن أن يسيطر على تلك المنظمة الإجرامية القوية، فقلت: حسبه أن يكون الرأس المدبّر المفكّر يخطّط ويدير.

وفجأة قلت: كم أتمنى أن أعرف كيف جمع السير أوستاس ثروته الطائلة!

- يا إلهي! أما زلت تشكّين فيه؟!

- أنا لا أملك إلا أن أشكّ في كل إنسان.

فقالت سوزان: لقد ترامى إليّ أنه جمع ثروته بوسيلة يكره أن يتحدّث عنها.

- إذن لعلها وسيلة ملتوية غير شريفة.

- هذا جائز.

ثم بدأنا بعد ذلك نناقش موقفي بالنسبة إلى صحيفة الديلي بادجيت. رأسي زاخر بالمعلومات، فلماذا لا أبعث بها إلى صحيفتي لنشرها؟ لقد اكتشفت أن هاري رايبورن هو الرجل ذو البدلة البنية، وإن كنت أعلم أنه بريء من تهمة قتل الراقصة الروسية نادينا، ونشْر تلك القصّة لن يزيد موقفه سوءاً لأن جميع رجال الشرطة يُجدّون في أثره. وهكذا استقرّ رأيي على أن أبعث إلى الديلي بادجيت بكل ما لدي من معلومات. ونشرت الديلي بادجيت التحقيق الذي بعثتُ به إليها تحت عناوين بارزة، وجاءتني برقية من اللورد ناسبي يهنّئني على توفيقي ونجاحي.

* * *

الفصل الثاني والعشرون

وصلنا إلى بولا وايو صباح السبت، وكان السير أوستاس ساخطاً عصبيّاً، وأعتقد أن دُمى الحيوانات التي اشتريناها أنا وسوزان هي التي أثارت حنقه، وخصوصاً تلك الزرافة الخشبية الكبيرة الحجم التي عهدنا إليه بحملها. ويجب أن أعترف أن حمل خمسين دمية من هذا الطراز كان كفيلاً بأن يربكنا ويضايقنا؛ فقد حمل أحد الحمّالين جزءاً من تلك الدمى كما حمل الكولونيل ريس بعضها، وكان من نصيب الآنسة بيتغرو شيء منها أيضاً.

وبعد الظهر ذهبت مع الكولونيل ريس لنزور قبر رودس، وقد أخذَت السيارة الفورد العتيقة تشقّ بنا الطريق إلى جبل ماتابوس ونحن صامتان لا نكاد نتبادل كلمة واحدة، ثم انتهينا إلى منطقة مليئة بصخور ضخمة فقلت وأنا أتأمّلها: مَن يرى هذه المنطقة البدائية يُخيّل إليه أنها كانت مسكونة في قديم الأزمان بالجانّ والعمالقة.

فقال الكولونيل ريس مؤمّناً: صدقت؛ فإفريقيا كلّها على هذا النمط، وحشية بدائية كأنها بلاد المرَدة.

ثم نزلنا من السيارة وأخذنا نثِبُ من صخرة إلى صخرة لنبلغ القمّة حيث يقوم النصُب التذكاري لرودس، وفجأة كففنا عن المسير ووقف الكولونيل ريس في مواجهتي وسألني: حسناء تطوف بأرجاء العالم! أنا لا أصدّق هذا، حكاية أنك مندوبة صحيفة مجرّد ذريعة للتمويه. ما هي حقيقة مهمّتك؟

فأشحت بوجهي قليلاً حتى لا تتلاقى عيناي بعينيه وقلت له: كولونيل ريس، هل لك أن تصارحني بما أتيتَ أنت تفعله في هذه البلاد؟

فأجاب ببساطة: أتيت وراء المجد والطموح.

- يقولون إنكَ تعمل في المخابرات، فهل هذا صحيح؟

- أحبّ أن أؤكّد لك يا آنسة آن أنني أتيتُ إلى هذه البلاد كفرد عادي لا شأن له بأيّ عمل رسميّ.

ثم عُدنا إلى السيارة بعد أن شاهدنا قبر رودس. وفي طريق العودة مررنا بأحد المطاعم فاقترح ريس أن نتناول قدحاً من الشاي مع شيء من الفطائر، وفوجئت بأن احتشد حولنا مجموعة من القطط الجائعة وهي تموء بشدّة وترنو إلينا بأنظارها فرميتُ إليها بعض قطع من الفطيرة فالتهمتها بسرعة، كما مضى الكولونيل ريس إلى صاحب المطعم ثم عاد يحمل صحناً من اللبن والخبز فتهافتت عليه. وفي السيارة قال لي: آن، أنا في حاجة إليك، فهل تتزوّجينني؟

وكانت كلماته مفاجأة أذهلتني فأجبتُ متلعثمة وقلت: لا، لا، لا أستطيع.

- وما السبب؟

وأردت أن أكون صريحة معه لا أكتم دونه شيئاً فقلت: هناك شخص آخر.

فهزّ رأسه وغمغم: فهمت، وهل كان هذا الشخص موجوداً في حياتك قبل أن تستقلّي الباخرة؟

- لا، لقد حدث ذلك بعد ركوبي الباخرة.

وقال بصوت مختنق: فهمت، الآن عرفت ما يجب علي أن أفعله.

- ماذا تعني؟

- لا شيء، لا شيء.

ثم ساد الصمت بعد ذلك فلم نتبادل كلمة واحدة طوال رحلة العودة إلى الفندق.

* * *

ما إن دخلتُ على سوزان غرفتها في الفندق حتى ارتميت على صدرها وانفجرت أبكي بمرارة، فراحت تسألني عمّا ألمّ بي فحدّثتُها عن القطط التي تموت جوعاً، ولكنّ حديثي لم يخدعها فسألتني قائلة: وهل تلك القطط هي سبب هذه الرعشة التي تهزّ بدنك هزّاً عنيفاً هكذا؟

- أعصابي منهارة والوساوس تملأ صدري، وأشعر كأن كارثة رهيبة توشك أن تنزل بي.

- دعك من هذه الأوهام يا آن، ودعينا نتحدّث عن شيء طريف مبهج، فلْنتحدّث عن الماسات مثلاً.

فتساءلتُ: وماذا عنها؟

- أعتقد أن احتفاظي بها ليس من الحكمة في شيء؛ فالناس يعرفون مدى الصداقة التي بيننا وليس أهون عندهم من أن يعتقدوا أنني أنا التي أحتفظ بها لدي.

- ولكن لا يمكن أن يتطرّق إلى ظنّهم أنها مخبأة داخل لفافة فيلم.

- فلندَع الأمر الآن.

ثم انتهينا إلى مدينة الشلالات فذهبنا إلى الفندق واغتسلنا، وبعد تناول الشاي ركبنا العربة اليدوية وأخذت جماعة من الزنوج تدفعها صوب الجسر الذي يفضي إلى الشلالات. وكان المشهد رائعاً، الهوّة عميقة لا قرار لها، والمياه متدفقة من أسفلها، وغلالة الماء المتناثر ومجرى النهر وهو يتدفّق بسرعة مخيفة ويتكسّر على الصخور الهائلة. ثم عبرنا الجسر ومشينا على الطريق الضيّق الذي تحفّه الصخور البيضاء من جانبيه، والذي يدور حول مجرى الشلال حتى ينتهي إلى الساحة الشاسعة التي تطلّ على الهوّة العميقة. وقال الكولونيل ريس: أتريدون أن تهبطوا إلى أخدود النخيل أم تريدون أن ترجئوا الأمر إلى الغد؟ فقد يكون الهبوط هيّناً ميسوراً، أمّا الصعود فمتعِب شاقّ.

فآثرنا أن نُرجئ تلك الرحلة إلى الصباح فقال الكولونيل ريس: أتحبّون أن تشاهدوا الغابة التي تنتشر فوقها مياه الشلال؟

وأخيراً عُدنا إلى الفندق فتناولنا العشاء ثم أوينا إلى حجراتنا. ولكن النوم جافاني وسمعتُ نقرات على باب غرفتي، ثم دخل أحد سعاة الفندق يحمل إليّ رسالة مطوية وكان هذا نصّها: «يجب أن أراكِ، لا أستطيع طبعاً أن أظهر في الفندق. هلاّ قابلتِني في ساحة الشلال المجاور لأخدود النخيل إحياء لذكرى المقصورة رقم ١٧؟ أرجوك أن تلبّي رجائي، الشخص الذي عرفته باسم هاري رايبورن».

إذن فرايبورن هنا في مدينة الشلالات يتوارى فيها عن أنظار رجال الشرطة الذين يطاردونه. ولم أتردّد لحظة واحدة وأسرعتُ أتسلّل من غرفتي، ومررت بغرفة السير أوستاس فسمعته يملي خطاباً على سكرتيرته الآنسة بيتغرو، أمّا الكولونيل ريس فلم يكن في غرفته ولا في قاعة الجلوس. ثم تسلّلت خارجة من الفندق دون أن يشعر بي أحد وتابعتُ طريقي إلى الساحة المشرفة على الهوّة وأخدود النخيل، فمشيت ستّ خطوات ثم توقّفت وتسمّرت مكاني؛ فقد سمعت وقع أقدام ورائي، ثم تقدّمت خطوة أخرى فسمعت نفس الصوت. وإذا أرى شبح رجل يبرز في أحشاء الظلام ويقفز في الهواء محاولاً أن ينقضّ عليّ، وكان الظلام دامساً فلم أتبيّن منه إلا أنه مديد القامة يرتدي ثياباً أوروبية، فانطلقتُ أركض وهو في أعقابي، وفجأة شعرت أنني أخطو في الفضاء وأن قدمي لا تستقرّ على أديم الأرض وقد أطلق الرجل ضحكة مدوّية من ورائي.

كانت ضحكة رهيبة، ضحكة شرّيرة شيطانية، ثم بدأت أهوي إلى أسفل، إلى أسفل، إلى أسفل!

* * *

الفصل الثالث والعشرون

أخذت أفيق من الإغماء ببطء وألم وشعرت برأسي يطنّ ويدقّ، وعندما حاولت أن أحرّك ذراعي الأيسر سرى فيه ألم حادّ، ثم أخذ النوم يراودني مضطرباً حتى غلبني النعاس أخيراً، ثم صحوت مرة أخرى وقد انجاب الكابوس عن رأسي وتجلّت الصور الباهتة المتداخلة فذكّرت كل ما حدث. لقد تلقّيت رسالة هاري فأسرعت إلى لقائه في ساحة الشلالات، ثم ذلك الشبح الذي برز إليّ من أحشاء الظلام فركضت هاربة، ثم إذا بقدمي تخطو إلى الفضاء وأسقط في الهاوية.

وخُيّل إليّ لأوّل وهلة أنني وحدي في تلك الغرفة، ولكنني ما لبثت أن أدركت أن هناك إنساناً يجلس على مقعد بين سريري وبين الباب، ولكن صاحب الوجه حين رآني أتحرّك نهض واقفاً واقترب منّي ومال فوق وجهي ينظر إليّ وسألني: كيف حالك الآن؟ هل أنت بخير؟

فعرفته على الفور؛ فقد كان هاري رايبورن. وعجزت عن النطق ثم أخذت الدموع تنساب على وجهي، فهمس بصوت رقيق حانٍ قائلاً: لا تبكي يا آن، أنت الآن في أمان.

وذهب ثم عاد بعد برهة وهو يحمل إليّ قدحاً من اللبن وقال: لا توجّهي إليّ الآن أيّ سؤال، بل نامي واستريحي وفيما بعد سنتحدّث طويلاً.

ثم أخذ يدي بين راحتيه وهمس: أغمضي عينيك، نامي.

فأطبقتُ عيني وهدأت نفسي وما لبثت أن غرقت في النوم. وحين صحوتُ كان المساء قد هبط، ثم رأيت امرأة عجوزاً سوداء الوجه تجلس بالقرب مني وتبتسم في وجهي بحنان، ثم شعرت بخطوات تقترب فإذا هو هاري قد جاء إلى الغرفة، فخرجت المرأة واقترب مني وسألني: يبدو أنك استعدت قوّتك الآن، أليس كذلك؟

- أنا أحسن حالاً الآن طبعاً، ولكن أين أنا؟

- أنت في جزيرة صغيرة في نهر الزمبيزي تبعد أربعة أميال عن مدينة الشلالات.

- وهل يعرف أصدقائي أنني هنا؟

فهزّ رأسه نفياً وأردف: يحسن بك أن لا تبعثي إليهم بكلمة إلا بعد أن تستعيدي قوّتك.

- كم مضى عليّ هنا؟

وقد أدهشتني إجابته حين قال: شهر تقريباً، ولكن مَن هم أصدقاؤك هؤلاء؟

- سوزان، أعني السيدة بلير والسير أوستاس بيدلر والكولونيل ريس، ولكن كيف أنقذتَني؟ كيف عثرتَ عليّ؟

- لقد وجدتك معلّقة فوق شجرة تشرف على الهاوية وثيابك مشتبكة بالأغصان، ولولا أنني مررت مصادفة بهذا المكان لكان من الممكن...

- مصادفة؟! والرسالة التي بعثت بها إليّ؟

- أنا لم أبعث إليكِ بأيّ رسالة، لا بدّ أنها زائفة.

فعدتُ أسأله: ولكن ما الذي أتى بك إلى هذه الجزيرة المنعزلة؟

- لأن مسكني فيها، فأنا أقيم هنا منذ وضعت الحرب أوزارها، وكنتُ أتجوّل بالقرب من الشلالات فسمعتكِ تصرخين، ثم رأيتك معلّقة على الشجرة.

فعدتُ أسأله: ولكن لماذا لم تخبر أصدقائي بأنك عثرتَ عليّ؟

فسكت هنيهة ثم قال: يبدو لي يا آنسة آن أنك لا تدركين مدى الأخطار المحدقة بك؛ فالذي استدرجك إلى الموت بتلك الرسالة المزيّفة شخص يعيش في الفندق بالقرب منك، ومن المحتمل جداً أن يكون عدوّك واحداً من هؤلاء الأصدقاء المزعومين، فكيف بعد هذا أخطرهم بوجودك؟

- حسناً، لا داعي إذن لإخطارهم، كما أنني لن أحاول أن أتصل بهم.

- أتريدين أن أُسدي إليك نصيحة؟

- أنا مصغية إليك.

– نصيحتي إليك أن تتظاهري بأنك مفقودة، أعني لا داعي لأن تتّصلي بأصدقائك. دعيهم يعتقدون أنك متِّ.

وصمت قليلاً ثم استطرد قائلاً: وعندما تستردّين قوَاك سافري إلى بيبرا واستقلّي الباخرة من هناك وعودي إلى إنكلترا.

فقلت بازدراء: ألا يكون هذا التصرّف جبناً وخوَراً منّي؟

– أنت تتكلّمين كالطفلة الصغيرة الساذجة.

فقلتُ بغضب: أنا لست طفلة صغيرة، بل أنا امرأة، امرأة ناضجة.

فتأمّلني بنظرة فاحصة ثم غمغم بصوت خافت ساخراً: أنت امرأة ناضجة حقاً، وكان الله في عوني!

ثم انبعث واقفاً واستدار فجأة فغادر الكوخ.

* * *

يوماً بعد يوم بدأت أتماثل للشفاء وأستردّ قواي، وتتابعت الأيام ونحن نعيش معاً ونتناول الطعام معاً ونتناقش ونختلف ونتشاجر أحياناً، وكنت أعلم أن يوم الرحيل سوف يحلّ عاجلاً. وذات يوم كنتُ جالسة عند باب الكوخ وشعري منسدل على كتفي؛ فلم يكن لديّ دبابيس أو مشابك أثبّته بها، ففطنت فجأة إلى أنه كان يتأمّلني بنظرة حالمة ثم قال: أتعلمين يا آن أنك تشبهين بهذا الشعر الطويل المنسدل حورية خرجت فجأة من أعماق البحر؟

ثم بسط يده ولمس شعري ثم إذا به ينبعث واقفاً وهو يقول بغضب: اسمعي، يجب أن تسافري غداً. بالله عليك لماذا تعذبينني؟ لماذا تسخرين منّي؟!

- أنا لا أسخر منك، فإذا كنت تريد منّي أن أبقى فسوف أبقى... يكفي أن تأمرني.

- آن، لا تحاولي أن تستفزّيني؛ هذه الحالة لا تطاق! ثم هل تدركين من أنا؟ أنا مجرم يطاردني جميع رجال الشرطة، أنا رجل هارب مطارَد لا يستقرّ في مكان واحد، أمّا أنت ففتاة جميلة أمامك الحبّ والشباب، وفي يوم ما سوف تتزوّجين وتصبحين من أسعد النساء. أجل، يجب أن أنقذك مما أنت مُقدِمة عليه. غداً يجب أن تسافري، بل الليلة إن أمكن.

* * *

الفصل الرابع والعشرون

كان هاري رايبورن يرتجف انفعالاً وهو يردّد تلك الكلمات فقلت: هَبْني رحلتُ فماذا يكون من شأنك؟

- سأبقى هنا حتى أنتقم لك، وحين أعرف اسم من حاول أن يقتلك سوف أدقّ عنقه وأقذف به إلى هوّة الشلال كما أراد أن يفعل بك.

- يجب أن لا تظلمه يا هاري؛ فأنا التي أخطأت الطريق فركضتُ في اتجاه الهاوية.

- أنت واهمة في هذا يا آن؛ فقد ذهبتُ إلى نفس الموضع وتبيّنت خطّته الجهنّمية. أنت تعلمين أن هناك ممرّاً ضيّقاً على رأس الهوّة تحفّه صخور بيضاء تظلّ واضحة حتى في الليل كي لا تضلّ خطى السائر ويتخطّاها إلى الهاوية، ولكن ذلك القاتل الشيطاني نقل الصخور البيضاء بحيث جعلها تتّجه مباشرة إلى قاع الهاوية، وبذلك كنت تسيرين بين الصخور البيضاء متّجهة إلى حتفك وأنتِ لا تعلمين.

- إذن فهي نيّة مبيّتة لقتلي؟!

– تماماً. لقد أرادوا أن يقتلوك لأنهم يعتقدون أنك تعرفين أكثر مما ينبغي.

ثم أردف: وأظنّ أن من حقك الآن أن تعرفي قصّة حياتي.

* * *

أخذ هاري رايبورن يروي لي تاريخ حياته فقال: أنا أُدْعى هاري لوكاس، أمّا هاري رايبورن فاسم مستعار مزيّف، وفي الجامعة التقيتُ بزميلي جون إيرديسلي، وهو ابن المليونير إيرديسلي صاحب مناجم الذهب، وكان جون شابّاً متلافاً مولعاً بالقمار وطالما تورّط في العديد من الفضائح فيُغرِق نفسه في الديون أو يصدر شيكات بغير رصيد، فيبادر أبوه إلى سداد ديونه وينقذه من مخازيه. ثم ضاق الأب يوماً بأفعال ابنه فطرده من بيته، ثم ضاقت سبل العيش في وجه ابنه فتخلّى عن الدراسة في كامبريدج ورحل إلى أمريكا الجنوبية. ولما كانت أواصر الصداقة بيننا وثيقة متينة حذوت حذوه، فصحبتُه في رحلته وعشنا معاً في تلك البلاد نعاني من شظف العيش. وأخيراً حالفَنا الحظّ فعثرنا على منجم للماس في غينيا البريطانية وأدركنا أن أبواب الثراء قد فُتحت، ثم أخذنا بعض عيّنات من الماس وسافرنا إلى كمبرلي لنعرضها على الخبراء ليتبيّنوا مستواها، وهناك في كمبرلي التقينا بها في الفندق.

وأمسك هاري عن الكلام وتقلّصت عضلات وجهه وقبض أصابعه في ثورة وانفعال ثم استطرد قائلاً: كانت تلك المرأة تُدْعى إنيتا غرونبرغ، هذا هو اسمها الحقيقي، وكانت ممثلة

وعلى غاية من الجمال والشباب، وكانت تحيط بإنيتا هالة من الغموض ضاعفت فتنتها في نظر هذين الشابّين اللذين جاءا من أعماق الأدغال. وهكذا وقعنا، أنا وجون، في هواها. ومع ذلك لشدّة إخلاصنا المتبادل كان كل منا على استعداد لأن يسحق قلبه وأن يتخلّى عنها للآخر الذي تختاره زوجاً لها، ولكن إنيتا كانت تُبيّتُ خطة أخرى خبيثة، فهي لم تكن تحبّ أيّاً منا ولم تكن تنوي أن تقترن بأحدنا؛ فقد كانت متزوّجة فعلاً برجل يعمل بصقل الماس في شركة دي بيرس، وإن كانت قد كتمت عنا نبأ زواجها لغرض في نفسها.

وكنا طبعاً لفرط حبّنا لها وافتتاننا بها قد أفضينا لها بخبر المنجم الذي عثرنا عليه، وهكذا اتفقت إنيتا مع زوجها، ويُدْعى كارتون، والذي بمساعدته واشتراكه وقعت في كمبرلي سرقة كبيرة واختفى جزء من الماس كانت شركة دي بيرس قد سلّمته إلى المصرف لإرساله إلى إنكلترا. ثم اتجهت الشبهات إلى هذين الشابّين المغامرَين اللذين قدما من غينيا البريطانية، فألقت الشرطة القبض علينا وفتّشت أمتعتنا فعثروا فيها على حفنة من الماس، فقلنا إنها عيّنات جئنا بها من منجمنا في غينيا. وفحصها الخبراء فإذا هي نفسها جزء من تلك الماسات المسروقة من شركة دي بيرس، وكانت إنيتا قد اختفت في ذلك الوقت فانكشف لنا سِرّ المكيدة وأدركنا أنها سرقت العيّنات وهربت بها بعد أن وضعت مكانها جزءاً من الماس المسروق. وتدخّل السيد إيرديسلي في الأمر فدفع ثمن الماس المسروق الذي قُدّر بنحو ربع مليون جنيه، وهكذا سحب دي بيرس شكواه وحُفظت الدعوى ضدّنا.

ثم أُعلنت الحرب عندئذ فتطوّعنا في الجيش، ومات صديقي جون في أثناء القتال؛ فقد كان يلقي بنفسه في مغامرات حمقاء كأنما يسعى إلى الانتحار، أما أنا ففقد أُصبتُ بجروح فآواني أحد المواطنين في داره حتى شفيت، ولذلك أعلن الجيش أنني في عداد المفقودين. وأقسم لك يا آن أنني كرهت تلك المرأة كرهاً شديداً، تلك المرأة التي لوّثت اسمَينا وكانت سبباً في مصرع زميلي وموت أبيه بعد تلك الفضيحة المدوّية، فالأب المسكين لم يحتمل أن تعرف الدنيا أن ابنه لصّ مغامر.

ثم لجأتُ إلى هذه البلاد لأنها موطني الأصلي، فعشت في هذه الجزيرة الصغيرة المعزولة واشتريت قارباً أنقل فيه الناس عبر الشلالات ليشاهدوا معالمها، ثم وقع شيء أهاج في نفسي مكامن الذكريات الراكدة، فقد حدث يوماً وأنا أنقل جماعة من الناس في قاربي أن مددت يدي أساعد رجلاً على الصعود إلى القارب، فما إن وقعت أنظاره عليّ حتى أطلق صيحة دهشة وذهول وباتت في وجهه أمارات الخوف الشديد، ولكنني تظاهرتُ بأنني لم أفطن إلى ما حدث. وظلّ الرجل طوال الرحلة يختلس إلى وجهي نظرات مذعورة، فلمّا غادر قاربي تحرّيت عنه وعلمت أنه يُدْعى كارتون وأنه قادم من كمبرلي حيث يعمل في صقل الماس بشركة دي بيرس.

وخطر لي أنه لا بدّ أنه كان مشتركاً في تلك السرقة الكبيرة التي وقعت في كمبرلي والتي أُلصقت تهمة ارتكابها بي وبصديقي جون إيرديسلي، ولم أتردّد لحظة واحدة فسافرتُ إلى كمبرلي لأجمع مزيداً من المعلومات، ورأيت أن خير وسيلة لذلك هي أن أواجه الرجل مباشرة وأصوّب إليه مسدّسي وأنتزع

منه المعلومات التي أبتغيها. وذهبتُ إليه ليلاً في بيته فشهرت مسدّسي في وجهه وطلبت إليه أن يتكلّم، فاعترف لي أن إنيتا غرونبرغ زوجته وأنهما دبّرا السرقة معاً ولكن الكولونيل هو الذي وضع الخطة بحيث يتّخذ منّي ومن صديقي جون كبش الفداء فيوجَّه الاتهام إلينا دون أن يتطرّق الشكّ إلى المتآمرين الذين سرقوا ماسات دي بيرس فعلاً. فسألتُه عن اسم الكولونيل فأكّد لي أنه لا يعرفه، فطلبت منه أن يصفه لي فأقسم أنه لم يرَه في حياته، فعُدت أهدّده بمسدّسي وأنذره بأنني سأطلق عليه النار لأن المصير الذي ينتظرني لا يخيفني ما دمت أعيش في عزلة عن الناس ملطّخاً بالعار.

وبدأ كارتون يدلي إليّ بما كان يخفي من معلومات، فقال إن زوجته إنيتا لم تكن تثق بالكولونيل وكانت تعرف أنه شخص غادِر يبطش بأعوانه بعد أن يستغلّهم وبعد أن يصبحوا عديمي الجدوى لا ينفعونه بشيء، وقد آثرت أن تحتفظ لديها بشيء تهدّده به حين ترى منه بوادر الغدر والخيانة، ولذلك لم تسلّمه جميع عيّنات الماس التي سرقناها بل احتفظت لديها بجزء منها لتكون سلاحاً في يدها تشهره في وجهه إن رأت منه ما يخيفها؛ فتلك الماسات هي التي يمكن أن تبرهن بها على براءتي وبراءة جون وعلى أن السارق الحقيقي هو الكولونيل.

ثم قال لي كارتون إن زوجته إنيتا سافرت بعد السرقة إلى أوروبا واحترفت الرقص واتخذت لنفسها اسم نادينا الراقصة الروسية الشهيرة، وعملت في باريس خلال الحرب بالجاسوسية واللصوصية والتزوير تحت إمرة الكولونيل وبتوجيهه. ثم اختتم كارتون حديثه بأن قال إن زوجته كتبت إليه بأنها ستطلبُ من

الكولونيل قدراً كبيراً من المال لتسلّمه عيّنات الماس الخاصّة بي وإلا وشت به إلى دي بيرس، وعندها سيعرف سِرّ السرقة التي وقعت في شركته فيجرّ الكولونيل إلى غياهب السجون.

وعلمتُ بعد ذلك أن كارتون أخذ إجازة طويلة من عمله وأنه حجز لنفسه مكاناً على الباخرة قصر كيلموردن المسافرة إلى إنكلترا، فما كان مني إلا أن حجزت لنفسي تذكرة على نفس الباخرة بعد أن تنكّرت في صورة رجل كهل ذي لحية سرى فيها الشيب. وفي لندن تعقّبت كارتون دون أن يشعر بي، فرأيتُه يدخل إلى مكتب أحد سماسرة العقارات ويطلب تصريحاً بمشاهدة بيت في مارلو معروض للإيجار. لقد دخلت إلى المكتب في أعقابه وسمعت شطراً من حديثه، فحذوت حذوه وبدأت أستعلم عن البيوت المعروضة للإيجار، وبينما أنا أفعل ذلك إذا بزوجته نادينا تدخل المكتب لتستعلم بدورها عن المنازل الخالية، ولكنها لم تعرفني بسبب تنكّري، وسمعتها تطلب تصريحاً بزيارة بيت السير أوستاس بيدلر في مارلو المعروف باسم فيلاّ الطاحونة، أي نفس البيت الذي طلب زوجها أن يشاهده فأدركتُ على الفور أنهما سيتقابلان هناك وأن المقابلة بينهما ستجري بهذه الطريقة حتى يبدو وكأن الأمر جاء مصادفة فلا يثيران شكوك الكولونيل وأعوانه.

وساءلت نفسي: لماذا اختارا بيت السير أوستاس بالذات دون سائر البيوت؟ كنت أعلم أنه كان موجوداً في جنوب إفريقيا عند وقوع حادث السرقة، ولذلك خطر لي أنه من المحتمل أن يكون السير أوستاس هو ذلك الكولونيل الغامض الخفي. وخرجت مسرعاً من مكتب السماسرة فتعقّبت كارتون حتى

رأيته ينزل إلى نفق القطارات الكهربائية فدخلت وراءه ولكنه ما كاد يراني حتى بوغت بشدّة؛ فقد كان يعتقد أنني في جنوب إفريقيا فإذا بي منتصب أمامه في قلب لندن. ثم حدث عندئذ ما تعرفينه أنت يا آن. لقد اختلّ توازنه لهول المفاجأة وسقط فوق القضبان المكهربة فصعقته ومات لساعته، ولما نقلوه إلى الرصيف تقدّمتُ أفحصه مدّعياً أنني طبيب؛ فقد كنت أعتقد أن الماسات التي تخصّني في جيبه، ولكنني لم أجد إلا لفافة وقصاصة من الورق دوّن عليها موعد في اليوم الثاني والعشرين من شهر كانون الثاني (يناير) في الباخرة قصر كيلموردن. وعند مغادرتي المحطة وقعت الورقة من يدي والتقطتِها أنت فكانت تلك القصاصة هي بداية مغامرتك كما ذكرت لي.

وتبعتُ نادينا إلى الفندق فرأيتها تتناول الغداء، ثم تعقّبتها إلى فيلاّ الطاحونة في مارلو وزعمتُ لحارسة البيت أنني صديق لها جئت معها ولكنني تخلّفت عنها في مكتب البريد بضع دقائق لأبعث ببرقية، ولكنني ما كدت أدخل إلى الفيلاّ حتى رأيت نادينا أمامي ممدَّدة على الأرض جثة هامدة فأسرعت بالفرار، ولكن أوصافي عُرفت فجدّ رجال الشرطة في البحث عنّي، وهكذا نجح الكولونيل مرة أخرى في أن يُلصِق بي تهمة أنا بريء منها.

وبقيتُ بضعة أيام مختفياً متوارياً عن الأنظار، واتفق في خلال ذلك أن سمعت طرفاً من حديث يدور بين أحد رجال وزارة الخارجية والسير أوستاس بيدلر، فعرفت من ذلك الحديث أنه مسافر إلى جنوب إفريقيا، فذهبت إلى منزله وزعمت أنني موفد إليه من وزارة الخارجية لأصحبه في رحلته بصفتي سكرتيراً له فجازت عليه خدعتي وصحبني معه، وبذلك أُتيح

لي أن أغادر إنكلترا آمناً مطمئناً مستظلاً بحمايته دون أن يخطر ببال أحد أنني الرجل ذو البدلة البنية الذي يبحث جميع رجال الشرطة عنه.

فقاطعتُه بقولي: هل عرفتَ يا تُرى أن جاي باغيت كان موجوداً في مارلو يوم وقوع الجريمة؟

فأجاب هاري: لا؛ فقد كنت أعلم أنه في كان بصحبة سيّده السير أوستاس.

- لقد كان من المفروض أنه في فلورنسا في مهمّة ما، ولكنني متأكّدة أنه في مارلو.

وقال هاري: الأمر واضح إذن، لقد اختاروا فيلاّ الطاحونة مكاناً للمقابلة لأن باغيت يستطيع أن يتردّد عليها في أيّ وقت دون أن يثير وجوده الشبهات.

وأردف هاري وفي صوته نبرة من اليأس: وهكذا آلت جهودي كلّها إلى الفشل. لقد كنتُ أسعى إلى الاستيلاء على ماساتي التي سُرقت مني، ولكنّ الوحيدَين اللذين يعرفان مكانها قد ماتا، فكارتون صعقته القضبان المكهربة، ونادينا خُنقت في فيلاّ الطاحونة.

* * *

الفصل الخامس والعشرون

حين فرغ هاري من قصّته قلت له: والآن أظنّ أنه يحسن بك أن تصغي إلى روايتي.

فرويتُ له جميع الأحداث التي سبق أن عرفها القارئ حتى الآن، وكان الذي أدهشه أن يعرف أن الماسات التي كان يلهث وراءها كانت في حوزتي، أو بعبارة أدقّ في حوزة سوزان، وعندئذ بدا أن من الهيّن تبرئة هاري من التهمة الخاصّة بسرقة الماس، ولكن الشيء الذي بدا مستحيلاً هو تبرئته من تهمة الراقصة نادينا.

ومن جديد عاد السؤال يتردّد بيننا، مَن هو الكولونيل؟ أيمكن أن يكون جاي باغيت؟ فقال هاري: كان يمكن أن أقطع بأن باغيت هو الكولونيل لولا شيء واحد، وهو أن الذي يبدو مؤكّداً حتى الآن هو أن باغيت هو الذي قتل نادينا في فيلاّ الطاحونة؛ فإنذارها بالوشاية بالزعيم مشكلة لا يمكن أن يحلّها إلا الزعيم نفسه، فلا بدّ إذن أن يكون هو الذي تواعد معها على اللقاء في الفيلاّ ليناقش الأمر معها بنفسه وعندئذ قتلها، ولكن الشيء الذي يضعف من هذا الفرض هو محاولة اغتيالك

في أوّل ليلة وصلتِ فيها إلى هذه البلاد. لقد رأيتِ بنفسك باغيت يتخلّف في كيب تاون، فكيف يكون هناك وهنا في وقت واحد؟! كما أنه من المستحيل أن يبعث خطاباً إلى أحد أعوانه يأمره بقتلك لأن الخطاب لن يصل إلا يوم الأربعاء القادم. بقيت وسيلة واحدة وهي أن يبعث ببرقية إلى مساعده، وواضح أنه لا يمكن أن يضمّن البرقية أمراً بالقتل، ولهذا فأنا أستبعد أن يكون باغيت هو الكولونيل.

وسادنا الصمت برهة ثم قال هاري: لقد ذكرتِ لي أنك عند مغادرتكِ الفندق إلى الشلالات كانت السيدة بلير نائمة في غرفتها، وكان السير أوستاس بيدلر في جناحه يملي بعض الخطابات على سكرتيرته الآنسة بيتغرو وهما يتبادلان الحديث، فأين كان الكولونيل ريس؟

- لم يكن في غرفته.

- هل يعتقد أننا، أنتِ وأنا، على صلة طيّبة.

- هذا ما أظنه، ولكنني أستبعد أن يكون الكولونيل ريس هو زعيم تلك المنظمة الإرهابية الملقّب بالكولونيل؛ فهو من رجال المخابرات.

ضحك هاري بسخرية وقال: كيف عرفتِ هذا على وجه اليقين؟ لعله هو نفسه الذي بذر بذور هذه الإشاعة ليغطّي بها تحرّكاته الملتوية وتنقّله بين مختلف البلاد، وكذلك ليدرأ عن نفسه الشبهات إن خطر لأحد أنه الكولونيل. ولا تنسَي أنه كان موجوداً في جنوب إفريقيا عند وقوع حادث سرقة الماسات.

- إذن فما هو موقف باغيت؟ أهو من أعوان الكولونيل؟

- هذا محتمل وغير محتمل. هل حدّثكِ باغيت بنفسه عن عينه المتورّمة وعن تلك الليلة التي حاول فيها أحدهم أن يلقي بك إلى البحر من فوق سياج الباخرة قصر كيلموردن؟

- لا، فالسير أوستاس بيدلر هو الذي روى لي تلك القصّة. لقد قال لي إن باغيت رأى شبح شخص في منتصف الليل يأتي من ناحية مقصورة السير أوستاس فتعقّبه إلى سطح الباخرة، فما كان من الشبح إلا أن لكمه وطرحه أرضاً، وباغيت لا يعتقد أن من هاجمه هو الكولونيل ريس.

فقال هاري: والذي يمكن أن نستخلصه من هذه الرواية هو أن الكولونيل ريس هو الذي حاول أن يلقي بكِ إلى البحر، ولما فشل دار حول سطح الباخرة فالتقى بباغيت فصرعه أرضاً، ثم جاء إليك يزعم أن باغيت هو الذي حاول أن يقتلك.

فقلتُ معترضة: ولكن باغيت يؤكّد أنك أنت الذي اعتديت عليه وليس الكولونيل ريس.

- تعليل هذا الادّعاء بسيط. لنفرض أنه عندما أفاق من إغمائه لمحَني أسيرُ في أقصى الممشى، فمن الطبيعي أن يظنّ أنني أنا الذي اعتديت عليه.

فقلتُ: هذا محتمل، ولكن هناك أشياء أخرى تحتاج إلى تفسير.

- لعلك تعنين أن الشخص الذي كان يتعقّبك في كيب تاون خرج فجأة من المقهى ووقف يتحدّث إلى باغيت وأن باغيت نظر

إلى ساعته قبل أن يتابع طريقه. لقد اعتقدت عندئذ أن مطارِدك تلقّى أمراً من باغيت بأن يستدعي الشرطي ويتّهمك بنشل حافظة نقوده. لِمَ لا يكون هذا اللقاء متعمّداً لإلقاء الشبهات على باغيت وأن مطارِدك لم يتلقَّ منه أية تعليمات وأن كل ما فعله هو أنه سأل باغيت عن الوقت ولذلك نظر في ساعته؟

– إذن أنت تعتقد أن باغيت بريء وأن هناك مَن يحاول أن قذفه بالشبهات؟

– لا أستطيع أن أُدلي بجواب قاطع إلا إذا عرفتُ أولاً ما الذي كان يفعله في مارلو يوم مصرع الراقصة نادينا، فهو إن قدّم تفسيراً معقولاً بَرِئ من قتلها.

ثم نهض هاري واقفاً وهو يقول: والآن اذهبي إلى فراشك يا آن، وغداً تستيقظين مبكّراً لتشرعي في رحلة العودة إلى إنكلترا.

ولم يكن في نيّتي قطّ أن أهرب من الميدان، ولكنني لم أشأ أن أناقشه الأمر حينئذ.

* * *

في الصباح أيقظني هاري قبل أن تُشرق الشمس قائلاً: هيا استعدّي، سندَع القارب البخاري حتى لا ينبّه دويّ محرّكه الناس وسنستقلّ القارب الصغير فهو...

ولكنه أمسك لم يتمّ عبارته وهمس قائلاً: أنصتي... ما هذا؟

وأرهفنا السمع معاً، وكان هناك صوت مجاديف تضرب

الماء، فخرجنا إلى باب الكوخ وحدّقنا في الظلام، فلمحنا قارباً يدنو من الشاطئ فسحبني من ذراعي وهو يقول: لنعُدْ إلى الكوخ؛ فيبدو أن أصحابنا اكتشفوا مخبأك.

ثم أوصد باب الكوخ ونافذته وانتزع مسدّساً وبندقيّتين من فوق الجدار، كما جاء بصندوق مليء بالرصاص وأراني كيف أحشو البندقية، ثم وقف متربصاً عند النافذة يرقب ما سوف يحدث، وإذا بنا نسمع خشخشة الأعشاب وأوراق الشجر ووقع أقدام تقترب، ورأيتُ الهولندي الملتحي على رأس جماعة من الرجال، ذلك الهولندي الذي انتحل صفة أمين المتحف ودعاني إلى زيارته ثم اعتقلني.

وصاح هاري من وراء النافذة قائلاً: مَن هناك؟ من القادم؟

وكان الرّد الذي تلقّيناه سيلاً من الطلقات النارية انصبّت على نافذة الكوخ وجدرانه، فصوّب هاري بندقيّته وأحكم الهدف ثم أطلق النار. وطاشت الرصاصة الأولى ولكننا سمعنا صرخة مدوّية عقب الرصاصة الثانية. وتوالى تبادل الطلقات وكلّما فرغت بندقيته ناولتُه البندقية الثانية بعد أن أحشوها. وسمعنا صرخة ثانية ثم كفّ أعداؤنا عن إطلاق النار، فاختلس هاري نظرة من النافذة وقال: إنهم ينسحبون، ولكنني أعلم أنهم سيعودون، ولكنهم سيعودون في جمع كبير يحاصر الكوخ من جميع الجهات، فعلينا أن نبادر بالهرب قبل أن يعودوا.

ثم أخذ هاري من أحد الأركان صفيحة مليئة بالنفط فأفرغها في أنحاء الكوخ وفوق سطحه، وما كدنا نبتعد خطوات حتى

رأينا جمعاً كبيراً يقترب من الكوخ، وهم يطلقون النار، وفي تلك اللحظة اندلعت النيران في الكوخ بسبب الطلقات النارية التي أشعلت البترول فأخذنا نجري بكل قوّتنا هاربَين. وقد لمحتُ وأنا ألتفتُ إلى الوراء شبح شخصين فوق سطح الكوخ وقد أمسكت النار بثيابهما، فأمسكتُ بذراع هاري قائلة له بذعر: انظر، هناك شخصان يحترقان فوق سطح الكوخ!

فضحك قائلاً: لا عليك من هذا. اطمئنّي؛ فهي مجرّد ثياب حشوتُها بالوسائد والخِرَق البالية وجعلتها في شكل إنسان حتى يعتقد أعداؤنا أننا احترقنا مع الكوخ فيكفّوا عن مطاردتنا.

* * *

كانت الرحلة شاقّة مرهِقة ونحن نضرب في الأحراش والمستنقعات ونغوص في الطين والأوحال، وإذا ما أدركني التعب حملني هاري على كتفه كأنني طفلة صغيرة، حتى وصلنا إلى صديقه نيدفي ليفنغستون ونور الصباح يغمر الأرض بضيائه. وقد قدّم إلينا نيد طعاماً شهيّاً وأقداح القهوة الساخنة، ثم أوفده هاري يستفسر عن جماعة السير أوستاس بيدلر وهل ما زالوا في الفندق أم رحلوا عنه، وحذّره من أن يشير إلى اسمي بكلمة واحدة.

وعندئذ صارحتُ هاري بما في نفسي وأنني لا أنوي أن أعود إلى إنكلترا، وبعد نقاش وجدال وافق على أن أبقى مختبئة في بيت صديقه فترة وجيزة بعد رحيله ثم ألحق بصديقتي سوزان حيثما تكون فأبقى في صحبتها في انتظار تعليماته وأن نبادر بإيداع الماس في إحدى خزائن المصرف. ثم قال لي: والآن

فلنتّفق على شفرة سرّية نوقّع بها رسائلنا حتى لا يكتب لنا أحد خطاباً زائفاً ليستدرجنا إلى كمين، فأيّ خطاب أكتبه لك أو تكتبينه إليّ يجب أن يتضمّن حرف الواو مشطوباً، أي علينا أن نكتب حرف الواو في أيّ موضع من الخطاب ثم نشطبه، وهذا معناه أن الخطاب سليم غير مدسوس علينا وأنه صادر منك أو منّي، أمّا البرقيات فنوقّعها باسم آندي.

فقلت: فإذا جاءتني أو جاءك برقية غير مذيّلة بهذا التوقيع كانت مزوّرة.

وعندما آذن موعد القطار بالرحيل قال بحنان مبتسماً: اعلمي أنك إن تزوّجت غيري يا آن فلن أتردّد في قتله، وسيكون اتهامي بالقتل في هذه المرّة صحيحاً غير ملفَّق.

* * *

الفصل السادس والعشرون

نقلاً عن مذكّرات السير أوستاس بيدلر

أنا رجل محبّ للسلام والهدوء، ومع ذلك فقد كنتُ أجد نفسي على كُره منّي في غمار المشكلات والاضطرابات، فأولاً لديّ سكرتيري باغيت الذي تدلّ تصرّفاته على الغموض وتثير الشكوك، كما أنه في أوّل ليلة وصلنا فيها إلى مدينة الشلالات فوجئت بعد منتصف الليل بالسيدة بلير تقتحم غرفتي وهي تصرخ في وجهي قائلة: أين آن بيدنغفيلد؟!

فأكّدت لها أنني لم ألتهمها بعد العشاء، ثم أردفت قائلاً: المفروض أنها راقدة في الفراش الآن.

فقالت: هذا هو المفروض، ولكنها ليست في غرفة نومها وفراشها لم يمسّ.

- هل سألت الكولونيل ريس؟

- هو الآخر غير موجود في غرفته.

- إذن فالأمر واضح، لقد خرجا يتمشيّان معاً. ألم تلاحظي أنه يميل إليها؟

ولكن الكولونيل ريس دخل علينا في تلك اللحظة وأكّد لنا أنه لم يرَ آن بيدنغفيلد منذ ساعة العشاء، فأثرنا ضجّة في الفندق ومضينا نستفسر عن الفتاة وتحرّكاتها فعلمنا من الخدم أنها غادرت الفندق وحدها عند منتصف الليل وهي مرتدية ثيابها كاملة وأنها اتّخذت طريق الشلالات، وعلى ضوء المشاعل خرجنا نبحث عنها ولكننا لم نهتدِ إلى شيء فأرجأنا البحث إلى الصباح.

واهتدينا فعلاً إلى أثر حذائها بالقرب من الفندق، وقد استعنّا بنفر من قصّاصي الأثر استطاعوا أن يتتبعوا خطواتها إلى نهاية الجسر المفضي إلى الشلالات، ثم انطمست معالم حذائها وسط عشرات من آثار الأحذية؛ فقد زار المنطقة في الصباح الباكر بعض السائحين فاختلطت الآثار بعضها ببعض، فقلت: ليس هناك إلا تفسير واحد، وهي أنها فتاة خيالية تعيش في الأحلام، ولعلها أرادت أن تشاهد الشلالات في الليل فأخطأت الطريق لشدّة الظلام وسقطت في الهاوية فجرفها تيار الشلالات.

كانت ملاحظة بريئة ومنطقية ولكن شفتَيّ ما كادتا تنفرجان عنها حتى أخذت السيدة بلير تنوح في حين اكفهرّ وجه الكولونيل ريس وعلاه الوجوم. وقد سرت إشاعة أمس بأن هناك جزيرة منعزلة وسط النهر على مسافة قريبة من المدينة وأن هناك رجلاً وفتاة يعيشان معاً في تلك الجزيرة، وقيل إن الرجل كان يعيش في تلك الجزيرة منذ أعوام وإن لديه قارباً يؤجّره للسائحين ليطوف بهم ضفاف النهر، أمّا الفتاة فلم يسمع أحد بوجودها إلا في الأيام الأخيرة. فهل تكون تلك الفتاة يا تُرى هي آن بيدنغفيلد

وقد وقعت في غرام ذلك الرجل فذهبت لتعيش معه؟ إذا كان الأمر كذلك فلا شكّ أن ريس سيبذل قصارى جهده للتحرّي والاستفسار؛ فنار الغيرة تتأجّج في صدره.

وأخيراً قرّرتُ أن أسافر إلى جوهانسبرغ وكان ريس لا يفتأ يحثّني على ذلك، وبلغني أن الحال سيّئة هناك وأن الاضطرابات قد بدأت، فلمّا تناهت تلك الأنباء إلى السيدة بلير عدَلت عن السفر وقرّرت أن تبقى في مدينة الشلالات، ثم جاءت ترجوني أن أحمل معي تذكاراتها ولكنني تردّدت فاتفقنا أخيراً أن آخذ معي صندوقين صغيرين، أمّا الدمى الخشبية التي اشترتها من مختلف المحطات فتُشحَن في صناديق كبيرة تُرسَل إلى كيب تاون بطريق السكة الحديد حيث يتولّى باغيت إيداعها في أحد المخازن ريثما تحين ساعة العودة إلى إنكلترا. وهكذا سافرتُ إلى جوهانسبرغ تصحبني سكرتيرتي الآنسة بيتغرو بوجهها الدميم الذي لا يطاق.

* * *

الفصل السابع والعشرون

حلّ اليوم السادس من شهر آذار (مارس) وتراءت في الجوّ نُذُر الثورة وبدأت جوهانسبرغ تغلي فوق بركان، وقد أقسم العمّال أن يُضربوا عن العمل وأنهم لن يعودوا إلى مصانعهم إلا إذا خضع أَرباب العمل لشروطهم، وكانت المدينة على حال سيئة من الفوضى فسُمع الرصاص يدوّي وشحّ الطعام في الفنادق.

وفي الصباح زارني أحد مديري الشرطة فأخذ يحدّثني عن مكانتي الاجتماعية وأن الحكومة حريصة على سلامتي، ولذلك فهو يطالبني بالسفر فوراً إلى بريتوريا حتى أكون بمنجاة من المظاهرات ومن الطلقات النارية التي تطير في الهواء. فأوضحتُ له في عناد أنني لن أسافر إلى بريتوريا وأنني جئت إلى هذه البلاد لأدرس أحوالها الاقتصادية وأُجري تحقيقاً في أسباب الإضراب، فطال بنا النقاش ولم يكن في وسعه أن يرغمني على السفر إلى بريتوريا فاضطُرّ أخيراً إلى الرضوخ لرأيي وسلّمني تصريحاً يخوّل لي الحق في دخول المدينة. وما كاد مدير الشرطة ينصرف حتى جاءتني برقية من كمبرلي مذيّلة باسم السيدة بلير وهذا نصّها: «آن بيدنغفيلد بخير وهي معي الآن في كمبرلي».

وأدهشتني تلك البرقية؛ فقد كنت أعتقد أن تلك الفتاة وقعت في الشلالات وجرفتها المياه. حقاً إنها فتاة عجيبة! كم من مرة تعرّضت للخطر وللموت ثم إذا بها تُبعَث من جديد كأنما لم يصبها شيء! ثم تناولتُ قبّعتي وخرجتُ أطوف بالمدينة لأشتري بعض التذكارات.

وبينما أنا واقف أمام أحد متاجر التحف أدير عيني فيما هو معروض في واجهته إذا برجل يخرج فجأة من المتجر ويكاد يصطدم بي، وقد دهشتُ كثيراً حين كان هذا الرجل هو الكولونيل ريس، فقلت له: لم تكن لديّ فكرة عن وجودك في جوهانسبرغ! متى وصلتَ إلى هذه المدينة؟

فأجاب باقتضاب وخشونة قائلاً: مساء أمس.

- وأين تقيم؟

وبنفس اللهجة الجافّة المقتضبة أجاب قائلاً: مع بعض الأصدقاء.

وبدا عليه بوضوح أنه ضاق بأسئلتي فقلتُ له: أرجو أن تكون لديهم مزرعة للدجاج، فقد بلغني أن الطعام شحيح في هذه المدينة.

ثم تمشّينا معاً، فلمّا بلغنا فندقي قلت له: بالمناسبة، هل بلغك يا تُرى أن الآنسة آن بيدنغفيلد على قيد الحياة؟

فأومأ برأسه إيجاباً دون أن يتكلّم فقلتُ مستطرداً: لقد أثارت تلك الفتاة رعبنا، ولكن أين كانت؟ هذا ما أودّ أن أعرفه.

فأجابني ريس قائلاً: كانت تعيش في إحدى الجُزُر في نهر الزمبيزي.

- هل هو ذلك الصديق الذي قالت إنه كان ينتظرها في ديربان؟

- لا، بل شخص آخر، هو ذلك الرجل الذي نتمنّى أن نقبض عليه.

فهتفتُ مدهوشاً أقول: أتعني...؟ أتريد أن تقول إنه...؟

فقاطعني بقوله: نعم، هاري رايبورن بعينه، أو هاري لوكاس، فهذا هو اسمه الحقيقي. لقد استطاع أن يفلت مرة بعد مرة، ولكن الحلقة الآن تضيق حوله ولن يلبث أن يقع في قبضة الشرطة.

فتساءلت: وماذا عن الفتاة آن بيدنغفيلد؟ أهي شريكة له؟

فأجاب: لا، ولكن كل ما في الأمر أن ما بينهما لا يعدو أن يكون علاقة عاطفية.

ثم أردف يقول: لقد سافرت إلى بييرا.

فحملقتُ إلى وجهه دهشة وقلت: حقاً؟! وكيف عرفت؟

فأجاب: لقد بعثت إليّ بخطاب من بولا وايو ذكرت فيه أنها راجعة إلى إنكلترا.

- أمّا أنا فأعلم عن يقين أنها ليست في بييرا.

فقال الكولونيل ريس بإصرار: عندما كتبت إليّ كانت على

وشك السفر إلى بييرا.

وبدا الأمر عجيباً، فإمّا أن تكون السيدة بلير كاذبة وإمّا أن تكون آن بيدنغفيلد هي الكاذبة، فقلتُ له وأنا أُطلعه على البرقية التي جاءتني من السيدة بلير: إذن ما رأيك في هذه البرقية؟

فألقى نظرة سريعة على البرقية ثم غمغم قائلاً: إنهما في كمبرلي... هذا عجيب! ما الذي تفعلانه هناك في كمبرلي؟

ثم استأذن للانصراف متعجّلاً وعلى وجهه سمات التفكير والشرود.

* * *

ما كاد الكولونيل ريس ينصرف حتى جاء مدير الشرطة مرة أخرى لزيارتي وقال: يؤسفني يا سير أوستاس أن أزعجك مرة أخرى، ولكنني جئتُ لأمرٍ يتعلّق بسكرتيرتك.

فقلت ضاحكاً: ما شأنها؟ هل أهانها أحدهم فوصفها بالجمال؟

- لقد شوهدت تغادر متجر التحف الذي يملكه أغراساتو.

- وأيّ شيء في هذا؟ لقد هممتُ أنا نفسي بدخول ذلك المتجر اليوم، فهل كنتَ تنوي أن تقبض عليّ إن رأيتني خارجاً منه؟

- لقد شوهدت سكرتيرتك تتردّد على ذلك المتجر أكثر من مرة وتغيب في داخله طويلاً.

ثم أردف هامساً يقول: لدينا يا سير أوستاس معلومات سرّية مؤكَّدة بأن ذلك المتجر هو مقرّ المنظمة السرّية التي تدعو إلى الثورة وإسقاط الحكومة، ولعل سكرتيرتك عضو في تلك الجماعة، فكيف التحقت بالعمل لديك؟

فأجبته ببرود: حكومتك هي التي رشّحتها للعمل لديّ.

وحين سمع جوابي كاد يسقط مغشيّاً عليه.

* * *

الفصل الثامن والعشرون

آن بيدنغفيلد تكمل سرد قصّتها

ما إن وصلتُ إلى كمبرلي حتى بعثت ببرقية إلى سوزان بوصولي فهرعت إليّ من فورها دون أن تتريّث ساعة واحدة، وما إن رأتني حتى ارتمت على صدري وراحت تغمرني بالقبلات وعبراتها تنهمر على وجنتيها، ولما تمالكنا جأشنا طلبت إليّ أن أقصّ عليها تفصيلات الأحداث التي مرّت بي.

ولما فرغت من قصّتي قالت لي: إذن فقد وقعتِ في حبّ ذلك الرجل البدائي المتوحّش الذي يعتزل الناس في جزيرة نائية؟ لقد كنت معجبة بالكولونيل ريس وأعرف أنه يميل إليك، وكم تمنيتُ أن تتّخذينه زوجاً لك.

وساد الصمت بيننا برهة ثم قالت سوزان: اسمعي يا آن، عندما بدأتُ أشكّ في الكولونيل ريس وأنه من المحتمل أن يكون هو الكولونيل الغامض أقلقني أمر الماسات وخشيت أن يفطن بطريقة ما إلى أنها موجودة معي فيسلبها منّي، وقد تحيّرتُ في الأمر ولم أدرِ أين أخفيها، ثم خطرت لي فكرة.

ثم مالت فوق أذني وهمست تحدّثني عما فعلته بالماسات وأين أخفتها فقلتُ مؤمّنة: لقد أحسنتِ صنعاً، ولكن ما الذي فعله السير أوستاس بيدلر بالصناديق؟

فقالت سوزان: لقد أمر بالصناديق الكبيرة أن تُشحَن إلى كيب تاون، وقد أخبرني باغيت قبل أن أغادر مدينة الشلالات أن الصناديق أُودعت أحد المستودعات العامّة، كما علمتُ منه أنه سيسافر إلى جوهانسبرغ كي يلحق بالسير أوستاس.

- والصناديق الصغيرة، أين هي؟

- أعتقد أنها مع السير أوستاس وأنه ضمّها إلى متاعه.

فعدتُ أسألها: إذن فباغيت سوف يسافر اليوم إلى جوهانسبرغ؟

- هذا هو ما أخبرني به.

- حسناً، لا بدّ لي من مقابلته على رصيف المحطة عند مرور قطاره بها.

- وما الذي تريدينه منه؟

- أريد أن أوجّه إليه سؤالاً.

- يا إلهي! لا بدّ أنه سؤال خطير.

- بل هو أخطر سؤال مرّ بذهني.

ثم علمتُ من مكتب الاستعلامات أن القطار سيمرّ بمدينة كمبرلي في الساعة الخامسة من بعد ظُهر اليوم التالي فيتوقّف

في محطتها عشر دقائق ثم يتابع مسيرته إلى جوهانسبرغ، وقد رقص قلبي طرباً حين تلقيتُ في نفس اليوم برقية من هاري يقول فيها: «وصلتُ سالماً، كل شيء يسير على ما يرام. إيريك هنا وكذلك أوستاس، أمّا جاي فلا. ابقَي مع سوزان في الوقت الحاضر. آندي».

وآندي هو التوقيع الشفري الذي اتفقنا أن نوقّع به برقيّاتنا حتى نتأكّد أنها صحيحة غير مدسوسة علينا، أمّا إيريك فالاسم الرمزي الذي اتفقنا على استعماله بدلاً من اسم الكولونيل ريس. وقضيت ساعات الفراغ كلّها أتبادل الحديث مع سوزان؛ فلم يكن لدي ما أفعله، وبعد ظهر اليوم التالي وبعد فرغنا من تناول الغداء سألتني سوزان: أتحبّين أن أصحبكِ عند ذهابك لمقابلة باغيت؟

- لا، أنا أؤثر أن ألقاه وحدي؛ فقد يتحرّج من أن يفضي إليّ بما في نفسه أمام شهود.

وقُبيل موعد وصول القطار بدقائق كنتُ واقفة على رصيف المحطة أتشوّق إلى اللقاء المرتقب والسؤال الذي سأوجّهه إلى باغيت وهل يجيب عليه أم يرفض الإجابة وما عسى يكون جوابه. ثم جاء القطار يتهادى على مهل، ونزل باغيت من المركبة ليتمشّى قليلاً على الرصيف فألفاني منتصبة أمامه ووجهاً لوجه، فحملق بدهشة وهتف بذهول قائلاً: الآنسة بيدنغفيلد؟! لقد فهمتُ أنك اختفيت!

فقلت برزانة وهدوء: وها أنا ذا قد عدتُ إلى الظهور مرة أخرى، ولكن كيف حالك يا سيد باغيت؟

- بخير، شكراً لك. هل تنوين العودة إلى خدمة السير أوستاس بيدلر؟

- لا، لقد جئت إلى المحطة خصّيصاً لمقابلتك أنت؛ فأنا أريد أن أوجّه إليك سؤالاً، وهو سؤال بسيط ولكن تتوقّف على الإجابة عليه نتائج خطيرة. أنا أريد أن أعرف ما الذي كنتَ تفعله في مارلو في اليوم الثامن من شهر كانون الثاني (يناير)، أي يوم مصرع تلك المرأة الأجنبية في فيلاّ الطاحونة.

فجفل باغيت وارتعدت أوصاله ثم قال: أهذا هو السؤال يا آنسة بيدنغفيلد؟ الواقع أنني...!

فقاطعتُه حتى لا يُغرقني بسيل من الأكاذيب وقلت: أنت كنت هناك في مارلو، أليس كذلك؟

فأجاب: بلى، كنتُ هناك لأسباب شخصية بحتة تتعلّق بي وحدي.

- ألا يمكن أن تصارحني بتلك الأسباب؟

- ألم يذكر لكِ السير أوستاس تلك الأسباب؟

فقلت بدهشة: السير أوستاس؟! أتُراه يعرفها؟

- نعم، بكل تأكيد، وإن كنتُ قد تمنّيت أن لا يكون قد رآني، ولكنني كنتُ أشعر أنه لمحني وعرفني دائماً؛ فقد كان دائماً يغمزني في أحاديثه ويبدي من الملاحظات العابرة ما جعلني متأكّداً من أنه يعرف، ومع ذلك فقد كنتُ أريد أن أصارحه بكل شيء ثم أقدّم إليه استقالتي.

في الواقع أنا لم أكن أدرك ما يتحدّث عنه باغيت، ولكنني تركتُه يسترسل لا أقاطعه لعل لسانه يفلت بالرّد الذي أتشوّق إليه. ثم مضى يقول: أنا أعرف أنني كنت مخطئاً، ولكن رجلاً من طراز السير أوستاس لا يمكن أن يقدّر موقفي أو يصفح عني.

فقاطعته بكلمات سريعة؛ فقد كنت أخشى أن يتحرّك القطار قبل أن أنتزع منه ما أريد فقلت: ولكنك لم تذكر لي بعدُ السبب في وجودك في مارلو في ذلك اليوم.

فقال: عفواً يا آنسة بيدنغفيلد، لقد أوشك القطار أن يتحرّك.

ثم قفز إلى مركبته وبدأ القطار يتحرّك، فركضتُ بجانب النافذة وأنا أردّد قائلة: ما سبب وجودك في مارلو؟

- أنا أشعر بالخجل.

- أرجو أن تتكلّم؛ فالأمر هام جداً.

فتكلّم باغيت وعرفتُ السبب.

* * *

الفصل التاسع والعشرون

نقلاً عن مذكّرات السير أوستاس بيدلر

في اليوم السابع من شهر آذار (مارس) وصل باغيت إلى جوهانسبرغ، وكان مذعوراً لفرط خوفه من الأحداث الدامية التي تجري في تلك المدينة، ثم اقترح عليّ أن نبادر إلى السفر إلى بريتوريا تفادياً للأخطار، ولمّا رددت عليه بحزم بأن نيّتي قد استقرّت على البقاء في جوهانسبرغ وأنني لن أبرحها مهما ساءت الأحوال ردّ عليّ بأنه يتمنّى لو كان معه مسدّسه الذي يحتفظ به منذ انتهاء الحرب حتى يشهره دفاعاً عنّي.

ولم أجد وسيلة للخلاص من ثرثرته إلا بأن أطلب منه أن يأتي بحقيبة الآلة الكاتبة وأن يشرع على الفور في نسخ مذكّراتي بعد أن يذهب بها إلى أحد المكاتب لإصلاحها؛ فقد تعوّدتُ كلّما طلبت منه أن يكتب شيئاً أن يردّ عليّ بأن بالآلة الكاتبة خللاً، ولكنه أجابني على الفور قائلاً: لقد أصلحتُها وأنا في مدينة الشلالات، وقد فتحت جميع الحقائب والصناديق ونسّقت محتوياتها.

- يا إلهي! أنت دائماً تأتي بتصرّفات تنطوي على الحماقة.

ألا تعلم أن الصناديق الصغيرة خاصّة بالسيدة بلير؟ فما شأنك حتى تعبث بحقائبها؟

فقال معتذراً: أنا آسف، آسف جداً.

ورأيتُ أن أتخلّص منه في فترة الصباح فقلت: والآن اخرج وتريّض قليلاً وشاهد معالم المدينة؛ فقد تندلع الثورة فجأة وبعدها ستجد المدينة خراباً.

وحين استدار ليهمّ بالانصراف ناديتُه وقلت له: بالمناسبة، ما هي محتويات الصناديق الصغيرة الخاصّة بالسيدة بلير؟

- سجاجيد صغيرة من الفراء.

فقلت معقّباً: لقد رأيتُها تشتريها كلما توقّف القطار في إحدى المحطات. وماذا أيضاً؟

- لفافات بعض الأفلام ومجموعة كبيرة من السلال الملوّنة المختلفة الأشكال وقفّازات قديمة.

- ولكن ألم يخطر لك بمجرّد أن فتحتَ أوّل صندوق أن مثل تلك الأشياء لا يمكن أن تخصّني؟

- لقد ظننتُ أنها تخصّ الآنسة بيتغرو.

فقلت: وبمناسبة ذكر الآنسة بيتغرو، من أين جئتَني بتلك السكرتيرة المشبوهة؟

ثم حدّثته بما رواه لي عنها مدير الشرطة وكيف أنها شُوهدت مراراً تتردّد على محلّ للتحف يعتقد رجال الشرطة أنه مقرّ اجتماعات المنظمة السرّية القائمة بالتحريض على

الثورة، فردّ باغيت بأنه لا يعرف عنها شيئاً أكثر من أنه ذهب إلى الغرفة التجارية للبحث عن سكرتيرة مؤقّتة لي فقدّموها إليه. ثم بدأ باغيت بعد ذلك يروي لي شيئاً حدث في الباخرة قصر كيلموردن بشأن لفافة أحد الأفلام، وكان في أثناء الحديث يضطرب ويتلعثم ويعيد ويكرّر ما قاله حتى كدتُ لا أفهم شيئاً. وأخيراً وبعد جهد وبعد أسئلة كثيرة وجّهتها إليه خرجتُ بالخلاصة وهي أن وصيفاً بالباخرة قذف بلفّة أفلام إلى إحدى المقاصير من خلال أنبوبة التكييف، فقلت له: هذه قصّة سخيفة لا تعنيني في شيء.

ثم ذهب وتركني فلم أرَه إلا بعد موعد الغداء، وقد جاءني مهرولاً وعلى وجهه أمارات الانفعال الشديد فقال لي إنه شاهد رايبورن في المدينة، فهتفت به: ماذا تقول؟! هل أنت متأكّد؟

- نعم، لقد لمحت على البعد شخصاً يشبهه، ولكنني متأكّد أنه هو رايبورن بعينه.

- هذا عجيب!

ثم استطرد باغيت يقول: وهل تدري مَن الذي كان يتحدّث إليه؟ الآنسة بيتغرو.

- الآنسة بيتغرو؟! أنا لا أصدّق هذا.

- لقد رأيتُهما بعينَي رأسي يتبادلان الحديث يا سير أوستاس، وليس هذا فقط بل رأيتهما يدخلان معاً محلّ التحف الواقع عند الناصية.

فشهقت رغماً عنّي فنظر إليّ باغيت باستغراب وسألني: ماذا حدث؟!

- لا شيء، لا شيء.

فاستطرد باغيت يقول: وقد اختبأتُ في ركن من الشارع أترقب خروجهما من المتجر ولكنهما لم يخرجا، فلم أتردّد في دخول المحلّ ولكنهما لم يكونا موجودين به، فلا بدّ أن للمتجر باباً آخر لا أعرفه.

وصمت باغيت هنيهة فقلت أستحثّه: وماذا أيضاً؟ هل هناك شيء آخر؟

- حين عدتُ إلى الفندق رأيت أن أقوم ببعض التحرّيات عن الآنسة بيتغرو.

ثم خفض صوته كما هو شأنه كلّما أراد أن يفضي بسرّ من الأسرار وقال: أجل، قمتُ ببعض التحرّيات فعلمت أن رجلاً شُوهد وهو يغادر غرفتها ليلاً.

فغمغمت: هذا غير معقول يا باغيت! فما من رجل يطيق أن ينظر لحظة إلى وجهها الدميم.

فاستطرد باغيت وعيناه تبرقان انتصاراً وقال: ولم أتردّد لحظة واحدة فصعدت إلى غرفتها وفتّشتها.

- وهل وجدت شيئاً مريباً؟

- نعم، وجدت هذا.

ووضع يده في جيبه ثم بسطها إليّ فإذا فيها آلة حلاقة وصابون حلاقة وقال: ما حاجة المرأة إلى مثل تلك الأشياء؟

فقلت ضاحكاً: لعل لها شارباً خفيفاً فتُضطرّ إلى حلقه.

- أنت تبدو غير مقتنع يا سير أوستاس، إذن فما رأيك في هذا؟

وكان في يده شَعر رأس مستعار، فسألته: وأين عثرتَ على هذا؟

- في غرفة الآنسة بيتغرو، فهل اقتنعت الآن أن سكرتيرتك رجل متخفٍّ في زيّ النساء؟

- إذن فهذا هو السبب في ضخامة قدمها! لقد لاحظت أن لها قدماً كبيرة لا تتناسب مع قَوام المرأة!

وران علينا الصمت برهة ثم قال: والآن أريد يا سير أوستاس أن أكاشفك بسرّ يتعلّق بي شخصيّاً. لقد أدركتُ من غمزاتك وتلميحاتك بشأن رحلتي إلى فلورنسا أنكَ اكتشفت أنني لم أسافر إلى إيطاليا في أثناء تلك العطلة.

فقلت له: إذن حدّثني بكل شيء يا باغيت واكشف لي سرّك.

- أنا لم أسافر مطلقاً إلى فلورنسا يا سير أوستاس؛ وأعتقد أنك رأيتني وعرفتني، وهذا هو السبب في تلميحاتك وغمزاتك عن رحلة فلورنسا.

فقلت باستغراب ودهشة: رأيتك وعرفتك؟! ولكن أين رأيتك بالله عليك؟

- لقد ذهبتُ إلى مارلو.

- مارلو؟! ما الذي دعاك إلى السفر إلى مارلو؟

- لأجل زوجتي وأولادي.

- زوجتك وأولادك؟! ظننتُ دائماً أنك غير متزوّج!

- هذه هي أكذوبتي يا سير أوستاس، وأنا أعتذر عنها ولكن كان لا بدّ أن أكذب.

- منذ متى وأنت متزوّج؟

- منذ ثمانية أعوام.

- ولكن لماذا كذبتَ عليّ؟

- لقد أعلنتَ يا سير أوستاس عن حاجتك إلى سكرتير مقيم يشترط فيه أن لا يكون متزوّجاً، فتقدّمتُ إليك وكنت عندئذ غير متزوّج فألحقتني بالعمل لديك، ولكنني ما كدت أستقرّ في حياتي حتى بادرت إلى الزواج، وقد خشيت أن أطلعك على ذلك فتقيلني عن العمل، لذا كتمت أمر زواجي.

- يا إلهي! إذن فمنذ ثمانية أعوام وأنتَ تستغفلني؟ وكم ولداً لديك؟

- أربعة يا سير أوستاس.

وتريّثتُ برهة مفكّراً ثم سألته: وهل رويتَ هذه الحكاية لأحد غيري؟

- الآنسة بيدنغفيلد فقط؛ فقد قابلتني في المحطة في كمبرلي في أثناء قدومي إلى هناك وسألتني عن سبب وجودي في مارلو في ذلك اليوم، يوم مقتل الراقصة الروسية.

- ولهذا ذهبتَ تزورها وأنتَ تزعم أنك ستقضي عطلتك في فلورنسا.

- أجل يا سير أوستاس. أنا آسف جداً، لقد ذهبتُ إلى بيتي يوم مصرع المرأة الأجنبية في فيلاّ الطاحونة.

- وأين كانت تعيش زوجتك خلال تلك الأعوام؟

- في مارلو؛ فبيتي هناك.

وبعد صمت قصير قال باغيت: لا شكّ أنك غاضب عليّ يا سير أوستاس لأنني كذبت عليك، ولا سبيل أمامي للتكفير عن أكذوبتي إلا بأن أقدّم استقالتي.

فقلت له: لا داعي لأن تكفّر ولا داعي لأن تستقيل.

وبعد أن انصرف باغيت تملّكتني رغبة قوية في أن أتجوّل في المدينة قليلاً، فمررتُ بمحلّ التحف ودخلت إليه، فهرول إليّ صاحبه وعرض عليّ بعض ما لديه فقلت له: أنا لا أريد شيئاً من هذه التحف العادية التافهة، بل أريد تحفة أصلية، تحفة لا مثيل لها.

فقال: لدينا تحف أصيلة فعلاً، ولكننا لا نعرضها إلاّ على المتخصّصين من عملائنا. هل... هل لك أن تتفضّل بالدخول إلى الغرفة الخلفية من المتجر؟

ثم فتح باباً في أحد الأركان ومشيت في أعقابه إلى الداخل.

* * *

الفصل الثلاثون

آن بيدنغفيلد تروي بقية قصّتها

أطلعتُ سوزان على الخطاب الذي وصلني وعرضت عليها خطّتي فقالت: لا.

ولكنني قلت: بل نعم.

رجَتني سوزان فرفضتُ رجاءها ونبذت توسّلاتها، فأخذت تبكي وهي تتضرّع إليّ ولكنني لم أحفل ببكائها فقالت: ولكنك ستعرّضين نفسك للقتل أيّتها الحمقاء!

ولكنني ازددتُ عناداً وتشبّثاً وألقيت إليها تعليماتي، فوعدَتني بأن تنفّذها بكل دقّة ثم قالت: أيتها الطفلة المجنونة! في هذه المرّة سيظفرون بك ويقتلونك.

وذهبتُ إلى الموعد المحدّد في ساعة مبكّرة من صباح اليوم التالي طبقاً لما ورد في الخطاب الذي وصلني، فوجدت في انتظاري هولنديّاً قصير القامة له لحية سوداء مدبّبة، فدعاني إلى ركوب سيارة أتى بها معه ثم انطلقت بنا السيارة في طريقها إلى مكان اللقاء.

وسمعت دويّ طلقات نارية صادرة من بعيد، فاستفسرتُ منه عن سببها فردّ قائلاً: إنها دويّ البنادق؛ فقد وقع شغب شديد في جوهانسبرغ والثورة وشيكة بأن تندلع.

وتوقّفت بنا السيارة في ضواحي المدينة أمام بيت في طريق جانبي منعزل، ثم فتح الباب وقادني الهولندي إلى قاعة في صدر البهو وقال يعلن قدومي: لقد وصلت الفتاة يا سيد هاري رايبورن.

ثم أطلق ضحكة تنطق بالسخرية وانسحب متراجعاً، فدخلتُ إلى الغرفة وأنا أعلم مسبقاً أنني لن ألتقي بهاري رايبورن، بل كنت أعرف أنهم يستدرجونني إلى كمين منصوب، وكان هذا هو السبب في معارضة سوزان لذهابي إلى الموعد المحدّد. ونهض لاستقبالي شخص كان يجلس إلى مكتب في أقصى الغرفة وقال مرحّباً: مرحباً بك يا آنسة آن بيدنغفيلد.

فرددت عليه قائلة بهدوء: عجباً! يبدو أنني زائغة العينين، فلستُ أدري مَن الذي أمامي! أهو القسّ شيستر أم الآنسة بيتغرو؟ بينكما تشابه شديد حتى أراني عاجزة عن التفريق بينكما.

فقال: لكِ أن تعتبري أننا شخص واحد.

ثم جلست وأنا أقول بتهكّم: يبدو أنني أخطأت العنوان؛ فقد أتيت لأقابل السيد هاري رايبورن.

فضحك قائلاً: هاري رايبورن؟ لقد كنتُ أعتقد يا آنسة بيدنغفيلد أنك أذكى من أن تنزلقي في الغباء إلى مثل هذا الفخّ المكشوف.

- صدَقت؛ فقد كان تصرّفي دليلاً على الغباء.

ويبدو أن شيئاً في لهجتي أثار شكوكه فقال: كنتُ أتصوّر أن تتلقّي هذه المفاجأة بطريقة مختلفة.

فقلت: أكنتَ تتوقّع منّي أن أُصاب بنوبة هستيرية؟

وساد بيننا الصمت هنيهة ثم قال: والآن فلنتكلّم في العمل.

فقلت: معذرة يا سيد شيستر، لقد علّمتني جدّتي أن لا أناقش شؤون العمل إلا مع الرئيس الأكبر دون أعوانه.

فصاح: ما هذا الهراء؟! ألا تدركين أنك الآن في قبضة يدي وأنني أستطيع بإيماءة أن أبطش بك؟

فهززت كتفي باستخفاف وقلت له: دعك من الوعيد والتهديد؛ فتهديدك لا يخيفني ولا يهزّ من رأسي شعرة واحدة. إن لم أقابل السير أوستاس بيدلر بنفسه فلن أتفوّه بكلمة واحدة.

فبوغت شيستر عند سماعه هذا الاسم ثم قال: لحظة واحدة.

وانسحب من الغرفة ثم عاد بعد دقائق معدودات وقال: تفضّلي معي؛ السير أوستاس في انتظارك.

ثم مضى بي إلى الطابق الأعلى ونقر على باب أحد الغُرَف ودعاني إلى الدخول، فهبّ السير أوستاس بيدلر يرحّب بي، وشدّ على يدي يصافحني بحرارة وهو يقول: هلا تفضّلت

بالجلوس؟ أنا سعيد بلقائك يا آنسة بيدنغفيلد.

ثم جلس في مواجهتي وتأمّلني بنظرة طويلة وقال: منذ متى وأنت تعرفين أنني الكولونيل؟

– منذ أن قال لي باغيت إنه رآك في مارلو يوم مصرع الراقصة الروسية في حين أننا كنا جميعاً نعتقد أنك في كانْ في فرنسا.

فهزّ السير أوستاس رأسه وقال: لقد دبّرتُ الخطّة بذكاء وبراعة، ولكن سوء الحظّ أراد أن يذهب باغيت إلى مارلو في ذلك اليوم فانكشف تدبيري كلّه. لقد بعثتُ بباغيت إلى فلورنسا وأخطرت فندقي بأنني ذاهب إلى نيس لأقضي ليلة واحدة أو ليلتين على الأكثر، ثم تسلّلت إلى مارلو فقتلت الراقصة وعُدت على الفور إلى كانْ دون أن يخطر ببال أحد أنني غادرت الريفييرا.

فقلتُ له: وأنتَ طبعاً الذي حاولت أن تقذف بي إلى البحر من فوق سياج الباخرة كيلموردن، وكنت أنت ذلك الشبح الذي لمحه باغيت يتجوّل ليلاً متلصّصاً في ممشى الباخرة فتعقّب خطواته.

فهزّ كتفيه وارتسمت على شفتيه ابتسامة وقال: أنا آسف يا ابنتي العزيزة، أنا لا أنكر أنني شعرتُ بالميل إليك منذ أوّل لحظة التقينا فيها، ولكن كان لا بدّ أن أزيحك من طريقي حتى لا تفسدي خططي وتقضي على مشروعاتي.

فعقّبتُ بقولي: الحق أنك بارع في تدبير الخطط يا سير

أوستاس؛ فقد كانت خطّتك على غاية من الذكاء يوم حاولت أن تقتلني عند الشلالات. لقد سمعتك وأنا أمرّ بباب غرفتك تُملي خطاباً على سكرتيرتك الآنسة بيتغرو، أعني السيد شيستر، ولذلك كان في وسعي أن أقسم على أنك كنت في جناحك.

فضحك السير أوستاس وقال بمرح: أجل، كانت خدعة رائعة، فأنت لم تكوني تعرفين أن شيستر ممثّل قدير يجيد تقليد الأصوات. وقد سبقتك إلى الشلالات أترقّب قدومك وتركتُ شيستر في جناحي يتكلّم تارة مقلّداً صوتي وتارة مقلّداً صوت الآنسة بيتغرو، فصدّقت الحيلة واعتقدت أنني في حجرتي أتحدّث إلى سكرتيرتي.

فقلت: ثمة سؤال يدور بخلدي، لا شك أن باغيت بريء ولا ضلع له في مؤامرتك ولا شأن له بها، فكيف جعلته يختار الآنسة بيتغرو بالذات سكرتيرة لك؟

- الأمر غاية في البساطة. لقد أوفدتُه إلى الغرفة التجارية ليطلب إليهم أن ينتقوا سكرتيرة لي، وكان شيستر (أعني الآنسة بيتغرو) في انتظاره في بهو الغرفة التجارية، فلمّا رأته داخلاً تقدّمَت منه وقالت له إنني اتصلتُ هاتفيّاً طالباً سكرتيرة مؤقّتة وإن رئيس الغرفة اختارها للقيام بهذه المهمّة، وطبعاً صدّقها باغيت بما طُبع عليه من سلامة النيّة وعاد بها إليّ.

فقلت له باستغراب: الذي يدهشني يا سير أوستاس أنك لا تتردّد لحظة في الاعتراف بما فعلتَ، ألا تخشى أن أشي بك؟

فضحك قائلاً: ولماذا أخشاك وأنت في قبضة يدي؟

فسألته: سير أوستاس. هل أنت واثق من نجاح الثورة وسقوط الحكومة الحالية؟

- لا، طبعاً؛ فلن تمضي إلا أيام معدودات ثم تقضي الحكومة القائمة على الثورة وتخمدها. الجنرال سمتس شخص قوي.

- ولكنك المحرّض على قيام تلك الثورة.

- لا يا ابنتي، أنا مجرّد رجل أعمال أبيع السلاح إلى الثوّار وإلى الحكومة في نفس الوقت.

* * *

فرغ كل ما لدي من أسئلة وران علينا السكوت برهة ثم عُدت أقول: قلتَ إنك لا تخشى جانبي وإنني رهن إشارتك، فماذا تعني يا سير أوستاس؟

فأجاب: لقد استدرجتك إلى عريني، وهذا أمر مفروغ منه ولا سبيل لك إلى الفكاك من قبضتي، ولكن المشكلة التي تواجهني هي ماذا عساي أفعل بك؟ من السهل جداً أن أقتلك وأتخلّص منك، ولكنني أشعر بالميل إليك وبي ضعف من ناحيتك، ولذلك قرّرتُ أن أتزوّجك. وأنت تعرفين طبعاً أن القضاء لا يأخذ بشهادة الزوجة ضدّ زوجها، فمهما قلت فالمحاكم لن تدينني بأقوالك.

فقلت بسخرية: هذا إذا رضيتُ أن أتزوّجك.

- بل سأُكرهك على أن تتزوّجي بي.

- إذن أنت واهم، ويبدو أنك لا تعرفني حقّ المعرفة يا سير أوستاس.

فهزّ رأسه بأسى وقال بمرارة: هذا شيء يؤسَف له. إذن فلن يبقى لديّ إلا الحل الثاني.

فارتعدتُ للنبرة الوحشية التي نبضت بها كلماته. وقال: هل في حياتك رجل آخر؟

فأومأت برأسي قائلة: نعم، أنا أحبّ رجلاً آخر.

- هذا ما كنتُ أتوقّعه. لقد ظننت في البداية أنك وقعت في هوى الكولونيل ريس، ولكنني ما لبثت أن تبيّنتُ خطئي. إنه طبعاً ذلك الشخص الذي أنقذك عند سقوطك إلى هوّة الشلالات.

ثم تراجع السير أوستاس في مقعده وقال وهو يتنهّد: مما يؤسَف له أنك لا تحبّين أن تكوني السيدة أوستاس بيدلر.

وبعد صمت قصير قال: والآن حدّثينا يا فتاتي بقصّتك كلّها. وأحبّ أن أنذرك: لا داعي للكذب.

وكنتُ أعرف ذلك، كنت أعرف أنه أذكى من أن أستطيع خداعه. وبدأت أروي له القصّة منذ بدايتها دون أن أكذب في حرف واحد، فلمّا فرغتُ منها قال: هذه قصّة عجيبة حقاً! قصاصة ورق تلتقطينها من عرض الطريق تدفع بك إلى كل تلك المغامرات والأخطار؟ لو أن غيري مكاني لما صدّق حرفاً مما تقولين، أمّا أنا فآمنتُ بكل كلمة نطقتِ بها؛ فروح المغامرة والتحدّي تطلّ من عينيك. أنت يا فتاتي ما نجوت من الموت إلا لأنك امرأة محظوظة، وإلا لَما أفلتّ من يدي. لقد احترفتُ حياة

المغامرة ولمّا أبلغ العشرين، أمّا أنت فمجرّد هاوية، وعندما يواجه الهواة المحترفين فالغلبة دائماً للمحترف. لولا أنّ الحظ حالفك...

فقاطعته بقولي: لقد رويت لك قصّتي دون أكذوبة واحدة، فما الذي تنوي أن تفعله بي الآن؟

- المهمّ أن أعرف أولاً أين الماسات.

- إنها مع هاري رايبورن.

فارتسمت على وجهه ابتسامة مرحة ساخرة وقال: جميل جداً. أنا أريد تلك الماسات وفي الحال.

فأجبت: مستحيل؛ فأنت لن تجد وسيلة للحصول عليها.

- اسمعي يا فتاتي، لدي في الطابق الأسفل رجل ألِفَ تلك المهامّ وحسبه إيماءة من إصبعي فيزهق أنفاسك، ومع ذلك فالخيار لك، إمّا حياتك وإمّا الماسات، فاختاري ما تشائين.

فقلت بشيء من التردّد: وهاري؟ ماذا عسى أن يكون من شأنه؟

فلاحت على شفتيه ابتسامة لطيفة وقال: أنا شخص عطوف رقيق القلب وأكره أن أفرّق بين عاشقَين، فبمجرّد أن أتسلّم الماسات سأطلق سراحكما، على شرط أن لا تتدخّلا في شؤوني مرة أخرى.

- وما الضمان على أنك ستفي بوعدك؟

- لا ضمان على الإطلاق يا طفلتي العزيزة إلا كلمتي.

وما من شكّ في أنني كنت أريد منه أن يعرض عليّ مثل ذلك الاقتراح؛ فهو الشيء الوحيد الذي يتّفق مع الخطة التي وضعتُها قبل حضوري إلى لقائه، ولكنني أبديت شيئاً من التمنّع والمعارضة كي لا أثير شكوكه. وأخيراً قبلتُ اقتراحه متظاهرة بأنني أذعنت له على كُره منّي. ثم قال: والآن خُذي ورقة وقلماً فاكتبي إلى حبيبك هاري رايبورن الرسالة التي سأمليها عليك.

فتناولت القلم وتهيّأت للكتابة فقال: اكتبي ما سأمليه عليك، وإيّاك أن تزيدي كلمة واحدة.

ثم بدأ يملي عليّ ما نصّه:

حبيبي هاري،

أعتقد أنني اهتديت إلى الوسيلة التي يمكن بها إثبات براءتك من تهمة سرقة ماسات كمبرلي وتطهير اسمك، فأرجوك أن تتبع هذه التعليمات بكل دقّة: اذهب إلى محلّ التحف المملوك لأغراساتو واطلب منه أن يريك تحفاً أصيلة ممتازة وسيُجيبك بأن لديه مثل هذه التحف وسيدعوك إلى دخول الغرفة الخلفية من متجره، فاصحبه إليها وستجد هناك في انتظارك رسولاً من قِبَلي سيأتي بك إليّ. لا تنسَ أن تحضر الماسات معك وإيّاك أن تُفضي إلى أحد بشيء عن خطابي هذا إليك.

ثم كفّ السير أوستاس عن الإملاء وقال: والآن ذيّلي الخطاب بتوقيعك، ولك أن تتخيّري إن شئت أشدّ الكلمات تعبيراً عن حبّك.

فتناولتُ القلم وكتبت: «حبيبتك الوفية آن بيدنغفيلد».

ثم أخذ السير أوستاس الخطاب منّي فتلاه على مهل ثم قال: حسناً، إنه وافٍ بالغرض تماماً. والآن اكتبي الاسم والعنوان على المظروف.

ثم ضغط جرساً فهرع شيستر إلى تلبية النداء فقال له: أريد أن يصل هذا الخطاب إلى صاحبه في الحال.

نظر شيستر إلى الاسم المكتوب على المظروف فامتقع وجهه، وكان السير أوستاس يرقبه خفية ثم قال له: أهو صديق لك يا شيستر؟

فجفل شيستر وقال: صديق لي؟! لا، أنا لا أعرفه.

فابتسم السير أوستاس ابتسامة لطيفة وقال: هذا عجيب، لقد تحدّثتَ إليه أمس في جوهانسبرغ حديثاً طويلاً!

فازدرد ريقه وقال: لا أدري إن كان هو أم لا. لقد أقبل عليّ شخص لا أعرفه وطلب منّي بعض المعلومات عنك وعن الكولونيل ريس، وبطبيعة الحال قدّمتُ إليه معلومات مضلّلة.

- بديع، بديع جداً.

ونظرتُ إلى وجه شيستر وهو يغادر الغرفة فرأيته ممتقعاً شديد الشحوب لفرط فزعه ورعبه. وما كاد يوصد الباب وراءه حتى قال السير أوستاس: لقد خانني شيستر واتفق مع أعدائي.

ثم رفع سماعة الهاتف الداخلي وتكلّم فيها قائلاً: شوارت، راقب شيستر وإيّاك أن يغادر البيت لأيّ سبب دون أمر منّي.

وحين أعاد السمّاعة مكانها قلت له: سيد أوستاس، هل تسمح لي بأن أوجّه إليك سؤالاً؟

- سلي ما بدا لك، ولن أضنّ عليك بالجواب.

- أنت تعرف هاري رايبورن حقّ المعرفة، فلماذا ألحقتَه بخدمتك سكرتيراً لك ولم تسلّمه إلى الشرطة؟

- لأنني كنت أريد تلك الماسات اللعينة، وكانت نادينا تستغلّ هاري في تهديدي؛ فقد أنذرتني بأنها ستسلّمه الماسات إن لم أدفع ثمناً مناسباً، فدعوتها إلى فيلاّ الطاحونة وقتلتها لأستولي على الماسات ظنّاً منّي أنها كانت تحملها معها، ولكنها كانت أذكى مني وأدهى، وكان زوجها كارتون قد مات أيضاً مصعوقاً بالقضبان المكهربة، ولم يكن لدي أيّ أثر يرشدني إلى مخبأ الماس. ثم علمتُ أن برقية أُرسلت إلى نادينا من الباخرة كيلموردن، وإن كنت لم أعلم إن كان صاحبها هو كارتون أم رايبورن، واستطعت أن أحصل على صورة تلك البرقية فإذا بها صورة طبق الأصل من القصاصة التي وقعت من الطبيب في النفق والتقطتها أنت، فلم يكن مدوّناً بها إلا هذه الكلمات: «١٧، ٢٢، ١»، فاعتقدتُ أن هذا التاريخ موعد مضروب لمقابلة رايبورن، فلمّا جاءني يزعم أنه موفَد إليّ من وزارة الخارجية ليصحبني في رحلتي إلى جنوب إفريقيا بصفته سكرتيراً لي أدركت على الفور أنه كاذب وأن الوزارة لم توفده إليّ، ولكنني حين رأيت تشوّقه إلى السفر أيقنت أنه ذاهب إلى الموعد المحدَّد في البرقية، فاصطحبته معي ليكون تحت عيني، حتى إذا وقعت الماسات في يده انتزعتها منه بوسائلي الخاصّة.

- والكولونيل ريس؟ ما دوره في تلك الأحداث؟

- أنا أعرفه من قبل وأعرف أنه من رجال المخابرات،

وحين وقعت سرقة الماسات في كمبرلي كان موجوداً هناك، وفي أثناء الحرب كان يحوم حول نادينا ويراقب تحرّكاتها؛ فقد كانت تعمل جاسوسة تحت إشرافي، ولكنه فشل في الإيقاع بها، فلمّا ظهر الكولونيل ريس في الباخرة استولى عليّ الخوف وخطر لي أنه جاء في أعقابي. أجل، الكولونيل ريس هو الشخص الوحيد الذي أخشاه؛ فهو رجل ذكيّ قوي الشكيمة شديد العناد.

وفي تلك اللحظة رنّ جرس الهاتف فتناول السير أوستاس السمّاعة وسمعته يقول: حسناً، سأقابله بعد لحظات.

ثم التفت إليّ قائلاً وهو يعيد السمّاعة مكانها: لقد جاءني زائر يا آنسة بيدنغفيلد، فدعيني أرشدك إلى غرفتك.

ثم مضيت إلى غرفتي وحمل إليّ أحد الخدم حقيبة ثيابي، وكانت الحقيبة بين الحقائب التي طلبت سوزان إلى السير أوستاس أن ينقلها مع أمتعته، كما جاءني الخادم بإناء مليء بالماء الساخن ثم قال لي: لقد أمرني السيد شيستر أن أحمل إليك الماء؛ فقد تحبّين أن تغتسلي.

بدأت أتهيّأ للاستحمام فتناولتُ كيس الإسفنجة الذي سأدلّك به جسدي فإذا بي ألمس شيئاً صُلباً في قاع الكيس، ولم يكن هذا الشيء الصلب إلا مسدّساً صغيراً، فعجبتُ من الذي وضعه في الكيس. أيكون شيستر هو الذي فعل ذلك لأنه انضمّ إلى أعداء السير أوستاس؟ وفحصت المسدّس فإذا هو محشوّ بالرصاص، وما إن ارتديت ثيابي حتى وضعت المسدّس في جوربي، فما يدريني؟ قد أحتاج إليه.

* * *

الفصل الحادي والثلاثون

في الحادية عشرة قُدِّم إليّ الشاي، وفي موعد الغداء جيء إليّ بوجبة شهية من الطعام. وفي ساعة متأخّرة من ظهيرة اليوم نفسه دُعيت إلى مقابلة السير بيدلر، ونظر إليّ قائلاً: صديقك الشابّ في طريقه إلينا الآن، ولن تمضي دقائق حتى يصل.

ثم نظر إليّ السير أوستاس بنظرة فاحصة وقال: لقد حذّرتك صباح اليوم من أن تكذبي عليّ وأنت تقصّين عليّ قصّتك، ولكنك حاولت أن تخدعيني في جزء من القصّة.

فرفعتُ إليه وجهي مستفسرة عما يقصد فاستطرد قائلاً: لقد حاولت أن تقنعيني بأن الماسات في حوزة هاري رايبورن، ولم أحاول أن أقول إنك كاذبة بل سلّمت بقولك لغرض في نفسي؛ فقد كنت أريد أن أستدرج هاري إلى الحضور إلى عريني هنا، ولكنني أحبّ أن أقول لك أيتها العزيزة إن الماسات كانت في حوزتي منذ غادرت مدينة الشلالات، وإن لم أكتشف هذه الحقيقة إلا ليلة أمس فقط.

فهتفتُ بدهشة قائلة: إذن فأنت تعرف؟!

فقال باسماً: ولعلّه يسرّك أن تعلمي أن هذا الأبله باغيت هو

الذي كشف لي هذه الحقيقة. لقد حدّثني أمس عن لفافة أفلام أُلقيت إلى إحدى المقاصير من خلال أنبوبة التكييف، ولم يكن عسيراً عليّ بعد هذا أن أستنتج سرّ ذلك الحادث. ولما كانت السيدة بلير ترتاب في الكولونيل ريس فقد عهدت إليّ ببضعة صناديق أودعتها شيئاً من متاعها وطلبت مني أن أضمّها إلى متاعي وأن أشحن بعضها إلى كيب تاون وأن أستبقي الصناديق الصغيرة معي، وقد ظنّ باغيت أن الصناديق الصغيرة تخصّني فأفرغ محتوياتها لينسّقها، فلمّا أخبرني بذلك لمته على أنه عبث بصناديق السيدة بلير. ولما سألتُه عما تضمّه تلك الصناديق ذكر لي أن من بين محتوياتها مجموعة من الأفلام، فخطر لي أن من بينها ذلك الفيلم الذي قُذِف به إلى مقصورتها من أنبوبة التكييف والذي استنتجتُ أن الماس مخبّأ فيه، فجئت بالأفلام وفحصتها فوجدت أن لفافة منها أثقل من غيرها، فأدركت دون عناء أن تلك اللفافة هي مخبأ الماسات التي أسعى إليها، وما كدتُ أفضّها حتى تناثرت منها الأحجار الكريمة.

ثم ضحك السير أوستاس وأردف يقول: مما يؤسَف له يا عزيزتي أنك رفضت أن تكوني السيدة بيدلر، فالماسات الآن معي في حوزتي وأنت وصاحبك هاري رايبورن في قبضة يدي.

فلبثتُ صامتة أنظر إليه دون أن أنطق بكلمة، ثم تناهى إلى أذني وقع أقدام مسرعة ترتقي الدرَج، ثم فُتح الباب دفعة واحدة ودخل هاري رايبورن يمسك به رجلان من أعوان السير أوستاس، فلاحت على شفتَي السير أوستاس ابتسامة انتصار وقال: لقد كانت خطّتي رائعة! الهواة لا يملكون شيئاً حيال المحترفين، والغلبة دائماً للمحترف.

فقال هاري رايبورن بجفوة وخشونة: ما معنى هذا كلّه؟

وأجابه السير أوستاس بدماثة ورقّة: معناه يا عزيزي رايبورن أنك جئت بنفسك إلى عرين الأسد تسعى على قدميك.

فألقى رايبورن بنظرة غاضبة إلى ناحيتي وقال: ولكنكِ قلتِ يا آن إنني أستطيع أن أحضر في أمان.

فردّ عليه أوستاس بقوله: لا تُلقِ عليها باللائمة يا صديقي العزيز؛ فأنا الذي أمليتُها الرسالة التي بعثت بها إليك، وكانت في موقف لا يسمح لها بأن تعصى أوامري، ولكن يجب أن أعترف لك بأنها لم تكن متواطئة معي بل كانت مخدوعة فيّ. وقد نفّذتَ أنت تعليماتها بكل دقّة فذهبت إلى متجر التحف، وما إن دخلتَ إلى الغرفة الخلفية حتى وجدت نفسك في قبضة أعدائك.

فنظر إليّ هاري خلسة وغمز بعينيه غمزة خفيفة فأدركتُ مغزى نظرته ومرماها، ثم اقتربتُ من السير أوستاس حتى صرتُ على قيد خطوة واحدة منه، فقال السير أوستاس بنبرة فوز وانتصار: ما أسوأ حظّكَ يا هاري رايبورن! لقد سبق أن أفلتَّ من يدي، أمّا في هذه المرّة فلا مهرب لك.

فأجابه هاري بسخرية واستخفاف: أتظنّ ذلك؟ سنرى.

التفت هاري إليّ قائلاً: آن، صوّبي المسدّس.

وكنتُ متهيّئة أترقّب صدور الأمر، فما كادت شفتاه تنفرجان عن الكلمات حتى أبرزتُ المسدّس من داخل جوربي وصوّبته إلى رأس أوستاس بيدلر. وكانت مفاجأة لم يتوقّعها أحد، فحملق السير أوستاس دهشة وذهولاً، وكذلك حملق

الشخصان اللذان يقبضان على هاري، ثم دوّى صوت هاري بنذير ووحشية: آن، أطلقي عليه النار فوراً إذا أبدى أحد أيّ حركة وإيّاك أن تتردّدي.

فقلتُ: ثِق أنني لن أتردّد.

وظهر الخوف على وجه السير أوستاس حين رآني ألوّح بالمسدّس وهتف قائلاً: لا تتحرّكا؛ إن إصبعها على الزناد!

فقال له هاري: مُرْهُما أن يغادرا الغرفة.

فأصدر أوستاس أمره إليهما بالانصراف، وأغلق هاري الباب وراءهما وأحكم إغلاقه بالرتاج، ثم تحول إليّ وأخذ المسدّس منّي فقال السير أوستاس: يا إلهي! من أين جاءت آن بهذا المسدّس؟ لقد فتّشت متاعها بنفسي ولم...

فقاطعه هاري قائلاً: دعكَ من المسدّس ولا تُضِع الوقت عبثاً. لنناقش ما جئنا من أجله.

فتأمّله السير أوستاس بنظرة طويلة وقال: أنا لا أنكر أن لك الآن اليد العليا، ولكن ألا تعلم أن البيت مملوء بأعواني؟

فأغرق هاري في الضحك وقال: أتحسب حقاً أنه انتصار مؤقّت؟ إذن أنصت إلى هذا.

وارتفعت من الطابق الأسفل في تلك اللحظة طرقات عنيفة على الباب وصوت دويّ طلقات نارية، فشحب وجه السير أوستاس وقال متسائلاً: ما هذا؟ ما هذه الضجّة؟

- هذا هو الكولونيل ريس ورجاله.

- ولكن كيف وصل الكولونيل ومَن الذي استدعاهم؟!

- هدّئ من روعك يا سير أوستاس، فأنت لا تعلم أن بيني وبين آن اتفاقاً شفريّاً في كتابة الرسائل؛ فنحن نعلم أننا معرَّضون خلال هذه المغامرة للوقوع في المكائد، ولذلك اتفقنا على أن نضمّن كل رسالة يكتبها أحدنا للآخر حرف واو مشطوباً، فإذا لم يردْ حرف الواو المشطوب ضمن الرسالة عرفنا أن كاتبها أُكره على كتابتها بالتهديد، فلمّا جاءتني رسالة آن التي تستدعيني فيها إلى الحضور بحثتُ في سطورها عن حرف واو مشطوب فلم أجده فأدركتُ أنك أرغمتَها على كتابة ذلك الخطاب، فذهبت به إلى الكولونيل ريس واتفقنا على خطة العمل، وهكذا بعث ريس ببعض رجاله يراقبون متجر التحف ويحيطون به من جميع نواحيه، فلمّا غادرته من باب سرّي غير الباب العام الذي دخلتُ منه تعقّبني المخبرون السّريون فاكتشفوا موقع عرين الأسد!

* * *

اشتدّت الضجّة المتصاعدة من الطابق الأسفل وبدا أن رجال الكولونيل ريس شرعوا يحطّمون الباب، كما اشتدّ دويّ الرصاص صادراً من ناحية الطريق فتعالت الصرخات وقال السير أوستاس بيدلر: يبدو أن الثورة قد اندلعت.

وكان على حقّ في ذلك؛ فقد دوّت بعض طلقات المدافع وسقطت قنبلة على البيت المقابل فهدمت جزءاً من البناء وأشعلت النار فيه حتى كاد اللهب يلفح وجه السير أوستاس ورفاقه. وقال هاري رايبورن: لقد انتهت اللعبة يا عزيزي أوستاس، أنت الآن في قبضة العدالة.

فقال له أوستاس بهدوء: أتظنّ ذلك؟ أنت مخدوع يا صديقي؛ فما زالت عندي كلمة أخيرة أقولها، وهي أنك ربما استطعت أن تبرّئ نفسك من تهمة سرقة جواهر كمبرلي وربما أمكنك أن تبرهن على أنني السارق، ولكنك لن تستطيع أن تقيم الدليل على أنني قاتل الراقصة نادينا؛ فكل ما لديك ضدّي هو أنني كنتُ موجوداً في مارلو يوم وقوع الجريمة، ولكن لا أحد يستطيع أن يثبت أن بيني وبين تلك المرأة أية علاقة.

ثم أردف السير أوستاس باعتداد وثقة قائلاً: أمّا أنت فالأمر مختلف بالنسبة إليك، فأنت تعرفها ولديك الدافع إلى قتلها، ثم إن لك سجلاً حافلاً بالجرائم، ولا تنس يا صديقي أنك لصّ. ثم لا تنس أيضاً أن الماسات موجودة عندي في حوزتي وهي الوسيلة الوحيدة التي تبرّئك من تهمة السرقة... وها هي الماسات يا صديقي.

وطوّحها بأقصى قوّته عبر النافذة إلى البيت المجاور الذي كانت تلتهمه النيران فوقعت وسط اللهيب المندلع، وقال ضاحكاً بسخرية: ها هو دليل براءتك من تهمة سرقة كمبرلي قد ابتلعته النيران، ولذلك يمكننا الآن أن نتبادل الحديث في حكمة وتعقّل. أنت تريد أن تطهّر اسمك من تهمة سرقة الماس ودليل براءتك ذهب حطباً للنيران، ولكنني على استعداد لأن أحرّر لك اعترافاً بأنني أنا السارق وأنني أنا أيضاً الذي قتلتُ الراقصة نادينا، وذلك مقابل أن تُطلق سراحي وتدَعني أذهب في سبيلي.

فهتف هاري قائلاً: لن أقبل هذا العرض إطلاقاً، لن أتخلّى عن ريس وأدَعك تهرب حتى لو كان ذلك على حساب حرّيتي.

فضحك السير أوستاس قائلاً: أنت أحمق مجنون. أترفض هذا العرض السخي الذي فيه نجاتك لمجرّد اعتبارات أدبية؟

وقال هاري بإصرار: أنا أرفض.

ثم سمعتُ طلقات نارية تدويّ داخل البيت ووقع أقدام مسرعة ترتقي الدرَج، ثم قُرع الباب فحرّك هاري المزلاج ودخل الكولونيل ريس شاهراً مسدّسه وقال يخاطب السير أوستاس: أخيراً وقعت في يدي ولا مهرب لك.

فنظر إليه بهدوء واستخفاف قائلاً: ماذا تعني بهذا الهراء الذي تردّده؟

فأجابه ريس قائلاً: أعني أنني اكتشفتُ شخصيّتك الحقيقية يا سير أوستاس، أعني أنني أعرف أنك الكولونيل وآخر تهمة أوجّهها إليك هي أنك قتلتَ الراقصة نادينا؛ ففي اليوم الثامن من شهر كانون الثاني (يناير) لم تكن موجوداً في كانْ كما تدّعي بل كنت موجوداً في مارلو ساعة مصرعها.

- حقا؟ ومن أين جئتَ بهذه المعلومات القيّمة؟ هل هي من صاحبنا هاري رايبورن سارق ماسات كمبرلي؟

- لا، بل من شاهد آخر.

فتح الكولونيل ريس باب الغرفة وأومأ بيده، وتلبيةً لإشارته دخل إلى الغرفة القسّ شيستر وقال الكولونيل ريس: هذا هو الشاهد الذي سيبعث بك إلى حبل المشنقة يا سير أوستاس.

فنظر السير أوستاس إلى رَجُله الذي غدر به وغمغم قائلاً بمرارة: صدق مَن قال: «عندما تغرق السفينة تفرّ منها الجرذان».

فانبريت أقول: وثمة شيء آخر يا سير أوستاس، أنت تعتقد أنك رميت الماسات وسط النار، ولكن هذا غير صحيح لأنك لم تُلقِ في النيران إلا قطعاً من الزجاج. نحن لم نخبئ الماس الحقيقي في لفافة الفيلم بل وضعنا بدلاً منه بعض قطع زجاجية على سبيل التمويه.

فسألني السير أوستاس بفضول قائلاً: وهل يمكن أن أعرف أين خبأتم الماسات؟

فضحكت وأجبتُه قائلة: في بطن دمية الزرافة التي رجوناك أن تحملها.

- يا إلهي، ما أشدّ غبائي إذن!

وانبرى هاري رايبورن يقول: لقد أدهشكَ أن ترى مسدّساً في يد آن بيدنغفيلد وتساءلت كيف وصل إليها، فاعلم إذن أن مساعدك شيستر هو الذي وضعه في متاعها. لقد استطعنا أن نضمّه إلى صفّنا في الآونة الأخيرة.

فعاد أوستاس يردّد من جديد: صدق من قال إن الجرذان تهرب من السفينة حين توشك على الغرق.

وباستسلام وخنوع مدّ يديه إلى القيد الحديدي، فدارت الأغلال بمعصميه وغادر الغرفة مطأطئ الرأس مخذولاً.

* * *

(تمت)